الفصل الخامس

الاتصالات الدبلوماسية مع الشرق البعيد

كانت الحكومة الرومانية على عِلْمٍ بأن هناك أنظمةً سياسية قوية في الشرق. استقبل الأباطرة الرومان البعثات الدبلوماسية التي بعث بها حكام الهند القديمة، وسفراء من الدول الشرقية في عمق آسيا الداخلية. وتقدم التقارير عن هذه الاتصالات فكرةً مثيرةً للاهتمام تتعلق بكيفية نظر الرومان إلى العالم القديم ودورهم السياسي فيه.

ليست هناك "سجلات ملكية" للإمبراطورية الرومانية توضح بشكل مقتضب "سياسة" الدولة، أو تكشف عن الأهداف طويلة الأجل لحكومة الإمبراطورية. ولم يكن في روما "خدمة مدنية" شاملة، أو أي "أساس دبلوماسي" يمكنه نشر إستراتيجيات سياسية طويلة الأجل. وفي داخل الحكومة الرومانية لعب الإمبراطور ومستشاروه دوراً محورياً في معظم عملية صنع القرار السياسي. وبناءً على ذلك، كانت السياسة الإمبريالية إلى حدٍ كبيرٍ مدفوعة بمنظومة القيم والتصور الشخصي لنخبة حاكمة صغيرة جداً.

كانت التقارير الكلاسيكية التي تصف وصول مبعوثين من بعيد تُكتب بشكل عام بواسطة الكتّاب الذين لم يكونوا جزءاً من الدائرة المقربة للحكومة الإمبراطورية.

وكان هذا مصدر قلق، لأن المناقشات الدبلوماسية المهمة التي يشارك فيها الإمبراطور عادةً ما كانت تُجرَى سراً، ثم تم الكشف عن النتائج المترتبة على أي ترتيبات خارجية للشعب الروماني من خلال جهات عرض سياسية واسعة النطاق. كما تمت دعوة ضيوف روما الكرام من السفراء الزائرين من الشرق البعيد لحضور مناسبات عامة تم ترتيبها بعناية. وقد صُمِّمت هذه الإجراءات لنقل المفاهيم السياسية عن السلطة الإمبريالية، وقد أثرت هذه الدعاية في طريقة نظر غالبية الرعايا الرومان إلى جهات الاتصال البعيدة. إنَّ معظم التقارير الكلاسيكية الباقية لا تكشف عن أعمال دبلوماسية مع الجهات البعيدة. بدلاً من ذلك، فإنها تعكس الإثارة والتكهنات التي شعر بها مجموعة من السكان الذين يتعجبون لمجرد رؤية الإمبراطور في صحبة سفراء غريبين من أطراف العالم المعروف.

روما والسكيثيون الهنود

حدثت أولى الاتصالات على مستوى الدولة بين الحكومة الرومانية وحكام الهند القديمة في عهد أغسطس.[١] فقد سجل الإمبراطور في الوقائع المدونة على أعمدة المعبد، إنجازاته العظيمة مفتخراً بكونه أول زعيم روماني استقبل السفراء الهنود. وقال: "كثيراً ما أرسل ملوك الهند إليَّ بعثات دبلوماسية: فلم يحدث من قبل أن شاهدهم أي قائد روماني".[٢]

لقد بدأت أول اتصالات دبلوماسية بين روما والشرق البعيد على أيدي الملوك الهنود والسكيثيين الذين حكموا المناطق الشرقية المتاخمة لبارثيا. وبعد وقت قصير من إحكام أغسطس قبضته على مصر، قام التجار الإغريق والرومان الحريصون على الوصول إلى الهند ببناء أسطول جديد من أكثر من مائة سفينة تجارية.[٣] وقد جلب هؤلاء التجار التقارير عن الوجهات الشرقية التي وصفت كيف كانت ممالك البحر

المتوسط موحدة في ظل حاكم واحد. وكان الإمبراطور الجديد قد كشف عن طموحه لمزيدٍ من الفتوحات الشرقية من خلال الاستعدادات الرومانية لغزو الجزيرة العربية. وشهد التجار الهنود الهجوم الروماني على مدينة عدن اليمنية، وربما أذاعوا الأخبار في بلادهم عن تجميع الأسطول الحربي الروماني في البحر الأحمر. في هذا الوقت كان هناك توقع على نطاق واسع في الإمبراطورية الرومانية أن أغسطس كان على وشك شنِّ هجوم عسكري على بارثيا انتقاماً لهزائم روما في الماضي.[٤] واسترجع حكام شمال الهند تاريخ الإسكندر الأكبر الذي كان قد وضع سابقةً للقادة القدامى لغزو بلاد فارس، وتحسباً للقيام بأي عمل في الشرق أرسلوا ممثلين للاجتماع مع أغسطس.

وصل أول مبعوثين هنود وسكيثيين إلى أغسطس في حوالي عام ٢٦ قبل الميلاد. وكان الإمبراطور في إسبانيا في ذلك الوقت، يشرف على الغزو الروماني النهائي والصعب في أقصى غرب هذه المنطقة من البلاد. وبعد قرنٍ من هذا الحدث، قدَّم سوتونيوس تقريراً لهذا الاتصال الذي تأثر بشدة من جراء الدعاية الرومانية. وقال:

> اكتسب أغسطس سمعةً كبيرةً لبراعته واعتداله جعلت الهنود والسكيثيين يرسلون مبعوثين بمحض إرادتهم. وكنا نعرف هذه الدول سابقاً من خلال الإشاعات فقط، والآن هم يلتمسون صداقة أغسطس والشعب الروماني.[٥]

ويأتي تقريرٌ في وقتٍ لاحق من كاتب روماني يدعى بولوس أوروسيوس الذي يتذكر:

> التقى أخيراً السفراء الهنود والسكيثيون بالقيصر أغسطس في إسبانيا، قرب مدينة تسمى طراخونة. وقد عبروا العالم كله وليس لديهم شيء يرغبون فيه أكثر من الثناء على الإمبراطور وتمجيده بهالة الإسكندر الأكبر.[٦]

حدث هذا الاتصال الأول عندما كان أغسطس منشغلاً في الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية يتعامل مع الالتزامات السابقة، ويعزِّز المناطق الرومانية المقامة.

وكان اهتمامه مركزاً أيضاً على ترتيبات سياسية لتأمين استقرار النظام الإمبراطوري الجديد. ولم يكن أغسطس حتى عام ٢٢ قبل الميلاد -بعد أن تعافى أخيراً من مرض خطير-على استعداد لتولي القيادة الشخصية في الشرق والتعامل مع مشكلة بارثيا التي لم يتم حلها بعد.

وصلت ثاني بعثة دبلوماسية هندية إلى الحدود الرومانية بعد وقتٍ قريبٍ من وصول أغسطس إلى شرق البحر المتوسط، وعلمت بوجوده هذا المدن الإغريقية. وأرسلت بعثة دبلوماسية من قبل حاكم قوي من حكام الساكا، الذي كان يحكم ممالك صغيرة عديدة حول إقليمي السند وجوجارات. وتوقع البلاط الملكي في الساكا أن الحرب باتت وشيكة بين روما وعدوهما المشترك، بارثيا. وأعربوا عن اعتقادهم أن أغسطس كان على وشك الشروع في فتوحات شرقية جديدة لجعل نفسه على قدم المساواة مع الإسكندر الأكبر. وبناءً على ذلك، أراد ملك الساكا إقامة تحالف مع روما في الحرب القادمة.

كان شعب الساكا على دراية بالتراث اليوناني في الهند القديمة. لقد احتلوا الممالك الإغريقية التي حكمت من قبل منطقة السند، ولا يزالون يتحدثون اللغة الإغريقية.[٧] وبناءً على ذلك، حمل السفراء رسالة من ملك الساكا كتبت باللغة الإغريقية إلى أغسطس. واختار الملك مثالاً من التاريخ اليوناني ليعبر عن نواياه السياسية، وأعلن نفسه "بوروس" الجديد في الشرق البعيد. وهذا أمر مهم؛ لأن بوروس كان ملكاً على البنجاب، وهو الذي أقام علاقات مع الإسكندر الأكبر بعد غزوه لبلاد فارس عام ٣٢٦، قبل الميلاد. قاتل بوروس جيش الإسكندر حتى وصلوا إلى طريق مسدود، ولكن في التقاليد الكلاسيكية أصبح الحاكمان حلفاء بشدة. عرض الملك الهندي قواته للمساعدة في الفتوحات الإغريقية في الشرق البعيد، وفي المقابل

يحصل على منحٍ من الأراضي تُضاف إلى أرضه.[٨] وكان القياس مؤشراً جيداً لدوافع الساكا في إرسال بعثة دبلوماسية لأغسطس.

كانت هناك طرق برية داخل بلاد فارس الجنوبية، حيث كانت سلطة الفرثيين ضعيفة. وربما سافرت مجموعة من الساكا على هذه الطرق للوصول إلى الحدود الشرقية لسوريا الرومانية. ويصف سترابون كيف رأى شهود عيان متحمسون البعثة الدبلوماسية في أنطاكية وهم في طريقهم للاجتماع مع الإمبراطور. يقول سترابون في هذا الخصوص:

> يقول نيكولاوس إنه في أنطاكية، بالقرب من دافني، صادف السفراء الهنود الذين قد أرسلوا إلى قيصر أغسطس. وأشارت الرسالة التي كانوا يحملونها معهم بوضوح أنه كان هناك أكثر من ثلاثة سفراء، ولكن هؤلاء الثلاثة فقط ظلوا على قيد الحياة (الذي قال إنه رآهم). وتوفي الباقون بسبب الرحلة الطويلة. وقد كتبت الرسالة بالإغريقية على الجلد، وأعلنت بوضوح أن الكاتب هو "بوروس".[٩]

بعث الحاكم الروماني في أنطاكية بعثة دبلوماسية لمقابلة أغسطس في جزيرة ساموس الإغريقية، حيث كان يعقد الإمبراطور محكمة في عام ٢١ قبل الميلاد. وهنا قام السفراء بتسليم رسالتهم وتوصلوا إلى اتفاق مع الإمبراطور بشأن "معاهدة الصداقة". وكتب دايو• ما يلي:

> عاد أغسطس إلى ساموس... حيث أشرف على العديد من المسائل التجارية. وجاءت إليه بعثات دبلوماسية كثيرة وكبيرة، وأبرم الشعب الهندي- الذي سبق أن قدم مبادرات -الآن معاهدة صداقة.[١٠]

• يقصد المؤلف المؤرخ الروماني دايو كاسيوس (المترجم).

ولم يكشف سوى القليل عن هذه المعاهدة، ولكنها تتضمن على الأرجح تعهدات بأن مملكة الساكا لن تعارض القوات الرومانية في أعمالها ضد بارثيا. وتلمح المصادر أيضاً إلى إمكانية التعاون العسكري بين الجانبين مستقبلاً. يقول سترابون:

> على الرغم من أن "بوروس" هذا كان حاكماً على ٦٠٠ ملك، إلا أنه لا يزال حريصاً على أن يكون صديقاً لقيصر أغسطس، وهو على أتم الاستعداد للسماح له (للقيصر) بالمرور عبر بلاده، إلى أيٍّ مكانٍ يرغب في الذهاب إليه. كما كان مهيأً للتعاون معه في أي شيء يكون مشرفاً.[١١]

لم يكن يتم إبلاغ الرعايا الرومان العاديين عادةً بهذه الترتيبات الدبلوماسية، ولكن عندما يتجول الإمبراطور في المدن الإغريقية، أثار حضور زواره الهنود مزيداً من التكهنات.

أرسل بعض ممثلي ملك الساكا الهدايا القيمة لأغسطس، التي عبرت عن قوة واتساع مملكتهم الشرقية. أما بالنسبة للشعب الروماني، فمثلت هذه العجائب الغريبة اعترافاً أجنبياً، وأثبتت أنه تم الاعتراف الآن بسلطة روما على أطراف العالم. عرض أغسطس الهدايا الهندية ليدهش الحشود في المدن الإغريقية، كانت لا تزال القرابين في حيازة الإمبراطور عندما زار مدينة أثينا الثقافية العظيمة.

وكان من بين الهدايا الهندية شاب هندي بلا أذرع ادعى الإغريق أنه "هيرميس الحي". كان هيرميس إله السفر والتجارة عند الإغريق، وبالتالي، فإن الشباب جسَّد أفكار عبور الحدود، وإقامة الاتصالات البعيدة. وقد أرسله ملك الساكا لأغسطس تحديداً بسبب هذه الارتباطات. وشاهد نيكولاس وسترابون الشباب وقالا:

> يقول نيكولاس أن الهدايا التي قدمت إلى قيصر أغسطس قام بعرضها ثمانية خدام عراة، لا يرتدون سوى قطعة من القماش تستر عوراتهم رائحتها طيبة. ويقول إن الهدايا تتألف من "هيرميس" الذي هو رجل ولد بدون أذرع، الذي رأيته بأم عيني.[١٢]

وشملت الهدايا الأخرى "حجلاً أكبر من نسر" كان لونه زاهياً من أراضي جبال الهيمالايا.[١٣] هذه الطيور الغريبة ريشها بلون المعادن من الأزرق المتلألئ والأخضر والأرجواني والأحمر والنحاسي.[١٤]

كما رافق قديس هندي من باريجازا يُدعَى زارماروس سفراء الساكا وبقي مع الوفد المرافق حتى جاء الإمبراطور إلى أثينا. ومن المحتمل أن يكون اسم "زارماروس" ترجمة إغريقية لكلمة (*شرامانا*) السنسكريتية التي تُستخدم لوصف البوذي القديم، أو المتقشف اليائي. وكان يعتقد الأثينيون أن القديس يُدعَى *زارمانو تشيجاز*، التي تترجم على أنها "*سيد شرامانا*". ولم تفهم الجماهير الرومانية رسالته التنويرية السلمية، وهذا ما قد يفسر تصرفاته اللاحقة. وأمام أغسطس والأثينيين الحائرين، شيّد السيد البوذي محرقة بعناية وأحرق نفسه فيها حيًّا. وكان ديو كاسيوس متحيراً من هذا الحادث، وكتب قائلاً:

> كان من بين الهنود رجلٌ يُدعَى زارماروس وهو ينتمي إلى طائفة الحكماء. ولسبب ما أراد أن يموت، ربما لأنه أعرب عن رغبته في تقديم عرضٍ لصالح أغسطس والأثينيين (أغسطس قد وصل إلى أثينا)... ومن ثم رمى نفسه حيًّا في النار.[١٥]

كشف سترابون عن استغرابه، وذكر في تقريره أن رفات زارماروس قد وضعت في قبر بارز في أثينا. ويصف سترابون أيضاً وفاته بتفاصيل أكثر إثارة:

> وكان جسده العاري ممسحاً بالزيت ولا يرتدي سوى قطعة قماش حول خاصرته، وأخذ يقفز في المحرقة المشتعلة وهو يضحك. وقد نقشت الكلمات التالية على قبره: "هنا يرقد *زارمانو تشيجاز*، هندي من باريجازا، ضحَّى بنفسه وفقاً لعادات الأجداد الهنود".[١٦]

ولقد صدمت الجماهير الإغريقية من تضحية القديس الهندي بنفسه، لكنه لم يكن حدثاً غير مسبوق، حيث يشبه هذا الحدث مشهداً شهيراً شهده الإسكندر الأكبر.

وهو أن قديساً هندياً يُدعَى كالانوس، كان يرافق الجيش الإغريقي، مرض وقرر أن ينهي حياته بالطريقة الدراماتيكية نفسها.[١٧] ويجب أن يكون التوازي واضحاً للمشاهدين الإغريق والرومان الذين يتوقعون الآن الحرب في الشرق.

عرض أغسطس اتصالاته بالساكا كدليلٍ على مدى ازدياد النفوذ السياسي الروماني في ظل نظامه الجديد، فقد سافر الإسكندر إلى أطراف بلاد فارس للحصول على اعتراف ملوك الهند، أما أغسطس فتلقى اعترافهم أثناء وجودهم في إمبراطوريته. وكانت الرسالة الرسمية هي أن حكام الهند يتطلعون الآن إلى روما للموافقة. كان لهذه الأفكار التي قدمت بعناية تأثير طويل الأمد على تطوير مفاهيم الإمبراطورية الرومانية والنطاق الممكن للإمبراطورية.

يمكن أن يكون أغسطس قد لعب بشكل متعمد على صورة الإسكندر الأكبر في عروضه العامة للمبعوثين من الساكا والهدايا الدبلوماسية بينهما. واجه ملك الفرثيين فراتيس انقسامات سياسية في مملكته ، وأصبح لديه الآن قلق آخر، وهو أن روما قد اكتسبت حلفاء هنود انتظاراً لفتوحات شرقية في المستقبل.[١٨] وفي الشرق البعيد كان ملك الساكا ينتظر الرد المتوقع من أغسطس. ربما عاد سفراؤه من اجتماعهم مع الإمبراطور للتأكيد على أن التحالف قد تم.

حتى الآن لم تتقدم الجيوش الرومانية شرقاً ضد مملكة الفرثيين. وفي عام ٢٠ قبل الميلاد حقق أغسطس تسويةً دبلوماسيةً مع بارثيا، ووافق الملك فراتيس على الفور على إعادة القواعد والجنود الأسرى جراء النزاعات السابقة مع روما. قدَّم أغسطس هذه التسوية السياسية على أنها انتصار تحقق ببساطة عن طريق التهديد القسري.[١٩] وفي الدعاية الرومانية، كان أغسطس يملي شروطه، حيث أجبر بارثيا على الموافقة على إرسال الرهائن من سلالتهم الملكية إلى روما. يمكن لأغسطس الآن أن يعيد انتباهه إلى نهر الدانوب وأراضي الراين على الحدود الشمالية للسلطة الرومانية.

ادعى أغسطس أنه تلقى العديد من السفراء الهنود أثناء فترة حكمه، وهذا قد يشمل مزيداً من مبعوثين الساكا. وأضاف دايو كاسيوس النمور البرية إلى قائمة الهدايا، التي بعث بها ملوك الساكا، ويمكن أن يكون هذا مرتبطاً بالأحداث التي وقعت حوالي ١١ قبل الميلاد عندما عرض أغسطس نموراً حيةً لحشود الروم المندهشين. وأشار دايو إلى أن السكان الرومان لم يروا هذه الحيوانات الشرسة من قبل والتقرير يعني ضمناً أن أغسطس تفوق مرة أخرى على إنجازات الإغريق القدماء، حيث كتب دايو ما يلي:

> لقد جلبوا النمور ضمن هداياهم، وكانت هذه هي المرة الأولى التي رأى فيها الرومان وعلى ما اعتقد اليونانيون أيضاً هذه الحيوانات.[٢٠]

لقد قدمت الاتصالات اللاحقة للرومان بالساكا فرصاً إضافيةً لجمع معلومات استخباراتية حول الأوضاع في الأراضي الشرقية المضطربة من بارثيا، ففي العام الأول الميلادي توصَّل الرومان إلى اتفاق سياسي جديد مع البارثيين يتحقق من ترتيبات مملكة أرمينيا المتنازع عليها، ويؤكد على أن الفرات هو الحد الشرقي للإمبراطورية الرومانية.[٢١] وبعد هذا، لا يوجد أي دليل آخر على الاتصالات السياسية المباشرة بين روما وممالك الساكا.

روما والتاميل

بحلول منتصف العقد العشرين قبل الميلاد، وصل التجار الرومان إلى موانئ التجارة الهندية في التاميل في جنوب الهند، واستجاب قادة التاميل من خلال إرسال مبعوثين إلى أغسطس لمعرفة المزيد عن روما والتجارة في الشرق البعيد، ويبدو أن هذه الاتصالات تمت بدافعٍ من الهيبة والفضول والتبادل التجاري وليس الطموح العسكري.

كانت إمارة كيرا في أقصى الشمال من إقليم التاميل أول ما وصل إليه التجار الرومان. وكان جيرانها من باندیا يغارون من هذه المبادلات التجارية المبكرة، التي زوَّدت منافسيهم من كيرا ببضائع ذات قيمة أو ما يسمى بـ"هدايا" من الخارج. وكان قادة باندیا عاقدين العزم على إقامة اتصالات خاصة بهم مع روما وأرسلوا بعثة دبلوماسية محملةً بالهدايا الثمينة إلى الشمال للعثور على هذه الأرض البعيدة التي يعتزمون إقامة علاقات جيدة مع حاكمها. وغادرت المجموعة على الطريق البري، ووصلت إلى حدود الإمبراطورية الرومانية بعد رحلةٍ ملحميةٍ استمرت لمدة أربع سنوات عن طريق الهند والشرق الأوسط. يقول سترابون:

> من باندیون أحد ملوك الهند... أتى لقيصر أغسطس من هناك هدايا وعطايا.[٢٢]

وشملت الهدايا المرسلة إلى الإمبراطور الروماني اللؤلؤ القادم من مصائد الأسماك في خليج مانار. وكانت هذه الهدية منطقية، حيث أرسلت البعثة الدبلوماسية لتشجيع تبادل السلع بين الإمبراطورية الرومانية وباندیا.[٢٣] وقد أعجب المجتمع الروماني باللآلئ، وتزايد بالفعل الطلب الاستهلاكي على هذه المجوهرات بسرعة. وكتب فلوروس ما يلي:

> السفراء الذين كانوا يبحثون عن الصداقة... كان من بينهم الهنود الذين يعيشون تحت الشمس. وقد جلبوا من بين الهدايا الفيلة وكذلك الأحجار الكريمة واللؤلؤ. كانوا يرون في رحلتهم الطويلة، التي استغرقت أربع سنوات لإتمامها، أنها أعظم شيء قدموه. في الواقع أثبت إتمامهم لهذه الرحلة أنهم جاؤوا من تحت سماء أخرى.[٢٤]

كما أرسلت غيرها من إمارات التاميل ممثلين لمقابلة الإمبراطور أغسطس. وقام فلوروس بربط بعثة باندیا الدبلوماسية بالسفراء الزائرين الذين كان يسميهم *الـ(سيريس)*. في ضوء هذا السياق، ربما جاء هؤلاء المبعوثون الآخرون من إمارة كيرا.[٢٥] وكان أكبر ثالث إقليم في التاميل هو إمارة تشولا التي كان شعارها النمر.

وعلى مايبدو قام حاكم إمارة تشولا بإرسال النمور الحية التي عرضها أغسطس في عام ١١ قبل الميلاد.

كانت هناك حوافز كبيرة لحكام التاميل للسيطرة على التجارة الرومانية، والحفاظ على حسن نية تجار الإمبراطورية. وفي الوقت الذي كان يقوم فيه بلني بالكتابة، كان يتم تصدير أكثر من ٥٠ مليون سيسترس من الثروة الرومانية إلى الهند كل عام، ومعظم هذه القطع النقدية وصل إلى أراضي التاميل.[٢٦] ولوضع هذا الرقم في سياقه، كانت تقدر عائدات فلسطين بأكملها نحو ٤٨ مليون سيسترس سنوياً.[٢٧] ومن ثم ليس من المستغرب أن شعراء التاميل أحيوا المعارك الملحمية بين باندیا وزعماء كيرا عبر منافذ الأسواق المهمة مثل موزيريس.[٢٨]

مما لا شك فيه أن أغسطس قد حظي بمقامٍ كبيرٍ عندما التقى مع ممثلي التاميل. وكانت هذه البعثات الدبلوماسية تمثل حكام أراضٍ أبعد من حدود الفتوحات الشرقية للإسكندر. وأحضروا أيضاً الهدايا التي تثير الإعجاب، وتدعو لفرص تجارية جديدة ينبغي استغلالها في الشرق البعيد، وسرعان ما أصبحت الأحجار الكريمة التاميلية من أدوات الموضة التي لا بد أن تكون موجودة عند كثيرٍ من الأثرياء الرومان.

وبعد عملية استقبال مبعوثي التاميل في محيط مثير للإعجاب، وقبول هداياهم الدبلوماسية، أقام الإمبراطور علاقات حسن النية التي أفادت التجارة بشكل كبير. ونظراً لطبيعة مجتمعهم، ربما نظر التاميل إلى الروابط التجارية المبكرة مع روما من خلال وجود علاقة شخصية بين الإمبراطور وحكام التاميل. وعليه وصف قادة التاميل تعاملهم الأولي مع التجار الرومان كأنه تبادل للهدايا.[٢٩] ولم يتخلَّ التجار الرومان عن هذا الرأي حيث رفع ذلك مكانتهم في الشرق البعيد.

سمح ملك كيرا للرعايا الرومان ببناء معبدٍ للإمبراطور أغسطس في موزيريس، وربما بنى التجار هذا الهيكل دون تدخل مباشر من حكومة الإمبراطورية.[٣٠] ولعلَّ التاميل كانوا ينظرون إلى هذا المعبد باعتباره "المقر" الإلهي للإمبراطور في إمارة كيرا. وحقيقة أن الرعايا الرومان تمكنوا من بناء هذا المعبد للإمبراطور إغسطس في موزيريس يوحي بأن كيرا كانت تقدر الإمبراطور تقديراً كبيراً. ومن المؤكد أن الأشكال الإمبراطورية في هذا المبنى كانت تشبه الصور المرسومة على النقود الذهبية التي أرسلت "كهدايا" من روما. وكان ينظر قادة التاميل إلى هذه الارتباطات على أنها حالة، وأنها استفادت من العلاقات الجيدة مع الرومان، حيث تدفقت إلى أراضيهم ثروة تجارية من الإمبراطورية الرومانية.

روما والسنهال

لم يحافظ الأباطرة، الذين أتوا بعد أغسطس على اتصالات دبلوماسية مباشرة مع الممالك الهندية. وقد جلب عهد أغسطس عصراً جديداً من السلام والرخاء لم يسبق له مثيل، وكانت روما فيه آمنة، ولها مكانتها الدولية. وكانت هناك بعض التهديدات الخارجية التي يمكن أن تشكل تحدياً جاداً للإمبراطورية، ولم يعد ينظر إلى الهند على أنها استثنائية جداً ونائية. وقام التجار بزيارات منتظمة إلى ممالكها، ويمكن رؤية المنتجات الشرقية في روما وجميع أنحاء البلاد.

في هذا العصر، أقام التجار الرومان علاقات طيبة مع ملوك الهند. وترددوا على الموانئ التجارية الرئيسية في ممالكهم، وعرضوا البضائع على البلاط الملكي للأسر الهندية الحاكمة. وكانت أي ترتيبات على مستوى الدولة مطلوبة للقيام بالتجارة الشرقية تتم من قبل رجال الأعمال الرومان العاملين في الهند. واستطاعوا بسهولةٍ اكتساب جمهور داخل السلطات الحاكمة، والموافقة على شروطهم دون علمٍ، أو

تدخل الإمبراطور.[٣١] ومن جانبهم، كان حكام الهند حريصين على التواصل مع الزوار الرومان الأثرياء وتسهيل أعمالهم بأي وسيلةٍ ممكنة. على سبيل المثال، خلال زمن تأليف كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*"، قام نهابانا ملك الساكا ببناء قوارب تجديف لجذب السفن الرومانية عند مياه المصب الغادرة. كما أمر أيضاً بوجود سفن حراسة لحماية هذه السفن من المغيرين المعادين المتمركزين في الأقاليم المجاورة.[٣٢] وتضمنت التجارة الشرقية بوضوحٍ سلسلةً طويلةً من التعاملات المماثلة، والترتيبات المتخذة لتحقيق المنفعة المتبادلة من الحكام الهنود وزوارهم من التجار الرومان.

على الرغم من أن التجارة الشرقية جعلت من الهند مكاناً يمكن الوصول إليه، فلا يزال هناك الكثير من الاكتشافات في انتظار الرومان في الشرق البعيد. وفي زمن تأليف كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" كانت هناك أفكارٌ شائعة بأن سريلانكا هي الطرف الخارجي لقارة وحشية وهائلة تساوي الكتلة القارية الأوراسية في اتساعها. ومع ذلك، قبل وقت قصير من وفاة كلاوديوس، وصل رجل روماني محرر -قد اختفى في رحلة تجارية شرقية - وعاد إلى مصر حياً وبصحة جيدة.[٣٣] وكان قد عاد مع السفراء المبعوثين من الحكومة السنهالية للبحث عن جمهور في بلاط الإمبراطور. وكان هذا هو الاتصال الأول بين روما والسنهال. ولقد قادت المعلومات التي كشفها هذا الاتصال لرجال الأعمال الرومان إلى نقلة نوعية في التجارة الشرقية. ويصف بلني كيف وقعت هذه الأحداث غير العادية:

> حصلنا على مزيدٍ من المعرفة عن سريلانكا عندما جاءت في عهد كلاوديوس بعثة دبلوماسية من تلك الجزيرة. جاءت من هذا الطريق؛ كان هناك رجل محرر من رجال بلوكاموس آنيوس حصل على عقد ضريبة للبحر الأحمر من وزارة الخزانة الرومانية، وكان يبحر في جميع أنحاء الجزيرة العربية عندما انحرف عن مساره بفعل الرياح الشمالية... وفي اليوم الخامس عشر وصل إلى ميناء هيبوروس السنهالي.[٣٤]

وبعد الوصول إلى سريلانكا تم إحضار الرجل المحرر الذي تقطعت به السبل أمام السلطات المحلية وبصفته محصلاً للضرائب، ادعى أنه ممثل للإدارة الرومانية. وكان يحمل عملات رومانية وبالتالي أدرك السنهاليون أنه شخص مهم من وطن يحكمه نظام متطور. وتم نقل الرجل إلى بلاط ملك سريلانكا حيث بقي كضيف. وبينما هو هناك، تعلَّم اللغة السنهالية، وكان قادراً على إطلاع الملك على معلومات عن الإمبراطورية الرومانية ومدى نفوذها السياسي في الغرب البعيد.

وعلى الرغم من أنَّ السنهاليين تلقوا البضائع الرومانية من تجار التاميل، إلا أنهم لم يروا ديناريا قبل هذا اللقاء.[٣٥] وفي هذا الوقت، كانت معظم القطع النقدية الهندية منخفضة الفضة بشدة، لدرجة أنها كانت تسبك أو تضرب وفقاً لمجموعة واسعة من المعايير الملكية المختلفة. على النقيض من ذلك، كان الديناري الروماني من الفضة الخالصة تقريباً، ولأنه كان يضرب ولا يسبك، ظهرت سلسلة من الصور الرائعة ذات التفصيل حادة على سطحها. وقد فتن البلاط الملكي السنهالي من هذه الأشياء، وما نقلته عن السلطة الرومانية. ويوضح بلني:

> مكث الرجل المحرر معزَّزاً مكرَّماً في ضيافة ملك السنهال لمدة ستة أشهر. وبعد أن تعلم لغتهم تحدث إلى السنهاليين عن الرومان وإمبراطورهم. وأعجب الملك من صدق الرومان لأن قطع الديناري التي كان يحملها ضيفه متساويةً تماماً في الوزن، على الرغم من أن الصور التي عليها متنوعة وتدل على أنها صيغت من قبل أفراد مختلفين.[٣٦]

وتباينت الفضة من معظم العملات الهندية وفقاً لثروات السلطة الحاكمة التي كلفت بها. في المقابل، كان للنقود الرومانية سلسلة طويلة من العوائد مع أي انخفاض ملحوظ في محتوى الفضة. وكان هذا مهماً؛ لأنه أثبت للسنهاليين أن روما كانت على مستوى عالٍ من الاستقرار المالي. وكتب بلني: "إن الملك السنهالي، كان يتمنى الصداقة بسبب هذه الحقيقة، وأرسل أربعة مبعوثين.[٣٧]

تم إرسال المبعوثين السنهاليين الأربعة لإجراء اتصالات مع روما برئاسة سفير كان بلني يسميه "راكيا". يمكن أن يكون عدد المبعوثين في هذه المجموعة ذا دلالة. وتؤرخ السجلات البوذية أنه في القرن الثالث قبل الميلاد أرسل السنهاليون مجموعة مماثلةً من أربعة سفراء لمملكة ماوريان شمال الهند. وشملت هذه المجموعة رئيس الوزراء، وقسيساً، وأمين صندوق ومسؤولاً آخر أقل مرتبة.[٣٨] ويمكن أن يكون تم اختيار مجموعة مماثلة من المسؤولين للبعثة إلى روما.

وكان الرومان يطلقون على السفير السنهالي اسم "راكيا"، ويبدو أن هذا كان لقبه الرسمي، وليس اسمه الشخصي.[٣٩] ويظهر اللقب *راتيا* في عددٍ من النقوش السنهالية في القرن الأول، ويصف مسؤولاً عن منطقة.[٤٠] وربما تم اختيار راكيا كزعيمٍ لهذه الحملة؛ لأنه كان بالفعل على معرفة بالسفر إلى الخارج البعيد. أخبر راكيا البلاط الملكي الروماني أن والده كان قد أبحر إلى الطرف الشرقي من الهند للتجارة مع "شعب الحرير" شعب بعيد وغامض – جاء من وراء جبال الهملايا.

ربما أخبر الرجل الروماني المحرر البلاط السنهالي حول أصول السلع والبضائع الأجنبية التي تصل إلى أسواق التاميل المجاورة ، ومنها المرجان الأحمر المبجل الذي له خصائص سحرية في التقاليد الهندية.[٤١] ولعل السفراء السنهاليون كانوا يأملون في إقامة اتصالات تجارية مربحة مع الإمبراطورية الرومانية. وربما كان للبعثة أيضاً دافع ديني مع الملك السنهالي الذي طلب من سفرائه العودة بمادةٍ لها أهمية خاصة من روما. وتسجل النصوص السنهالية الأولى أن الملك باتيكابايا كان يحكم سريلانكا في عهد كلاوديوس.[٤٢] كما تكشف أيضاً أن باتيكابايا تلقى كنزاً قيماً من المرجان من أرضٍ بعيدة، وكعملٍ من أعمال التقوى أعطى هذه التحفة الرائعة لدير بوذي مهم. وتم ذكر هذه الحادثة في نصين من

نصوص السنهال الأولى، التي تصف الأعمال القديمة، التي تدل على الإخلاص في العقيدة البوذية.[٤٣] ويذكر في سجلات *الديبافامسا* Dipavamsa • ما يلي:

> طلب باتيكابايا بأن تصنع شبكة لا تُقدَّر بثمنٍ من الشعاب المرجانية، ويُكسَى بهذه الشبكة ضريح ماهاتوبا كأنه رداء المتدينين البوذيين.[٤٤]

وببساطة يقر *ماهافانسا* "كان لدى باتيكابايا شبكة مرجانية ووضعها على ضريح بقايا بوذا".[٤٥] ويقدم تعليق تاريخي لاحق على الـ *"ماهافانسا"* مزيداً من المعلومات عن هذه الهدية المرجانية القيمة، حيث جاء في *الفامساتاباكاسيني* *vamsatthappakasini*:

> كان لدى باتيكابايا شبكة من المرجان. وبعث شخص ما وراء البحر إلى ما يسمى *أوخاراتا الروماني*، وأحضر المرجان الأحمر. كان لديه شبكة كبيرة مصنوعة من هذه الشعاب المرجانية بحيث يمكن وضعها في جميع أنحاء [ضريح بقايا بوذا].[٤٦]

يجب أن تكون *رومانوخاراتا* "ما وراء البحار" الإمبراطورية الرومانية بمرجانها الأحمر على البحر المتوسط. وقد اقترح العلماء، بالتالي، أن اسم *رومانوخاراتا* هو محاولة قديمة لتقديم الصفة اللاتينية "رومانوس" إلى اللغة السنهالية.[٤٧]

كما حصل كلاوديوس أيضاً على مكانة كبيرة من هذه الاتصالات الدبلوماسية الأولى مع السنهال. وقد قام الإمبراطور بغزو جنوب بريطانيا، ووضع السلطة الرومانية تقريباً على الحدود الغربية من العالم المعروف. وفي الخرائط الكلاسيكية، تظهر مساحة السنهال على الطرف المقابل من الأرض المأهولة. وكان ينظر إلى وصول الزوار الغريبين من هذه المنطقة غير المعروفة، لتكريم الإمبراطور، على أنه دليل آخر على بسط النفوذ الروماني على نطاق عالمي.[٤٨]

• الديبافامسا هي أقدم وثيقة تاريخية سيرلانكية (المترجم).

وشارك بلني مع الحكومة الرومانية في عهد فيسباسيان، لذلك فإن تقريره حول البعثة الدبلوماسية السنهالية كان واقعياً، ولم يذكر الهدايا الرائعة، أو استخدام اللغة التي توحي بأن المبعوثين كانوا في مهمة شخصية لتكريم الإمبراطور. وتشير التفاصيل التي ناقشها بلني في تقريره حول البعثة الدبلوماسية إلى نوع المعلومات التي تهم السلطات الرومانية، التي يرغبون في الحصول عليها من المبعوثين البعيدين. ويبدو أن الرومان كانوا يريدون سماع التفاصيل حول طبيعة الحكومة السنهالية، والجغرافيا، والمجتمع، والاتصالات التجارية البعيدة. وهذا يشير إلى وجهة نظر الإمبراطورية الحاكمة من هذه الاتصالات الشرقية التي كانت مختلفة عن الدعايات التي عرضت على الرومان.

وأكد بلني أن حديثه عن سريلانكا شمل معلومات جديدة تم الحصول عليها من المبعوثين، ولأن تقريره الجديد حول الجزيرة كان يحتوي على خلط كبير بين الأفكار، فمن المؤكد أن راكيا قد وجد صعوبة في تفسير مبادئ البوذية المعقدة التي تحكم المجتمع السنهالي. وربما كان من المتوقع أن الرجل الروماني المحرر قام بالترجمة مع إمكانية كون هناك مشكلات في تحويل هذه المفاهيم السنهالية إلى اللاتينية.

كما يتضح تحريف آخر في تقارير سريلانكا التي تلقاها بلني من الأصدقاء والزملاء من أفراد النخبة الرومانية. وكان من عدم الحكمة وفي كثيرٍ من الأحيان الخطورة، انتقاد الحكم الاستبدادي للأباطرة الرومان علناً. ومع ذلك، كان يمكن استخدام الثقافات الأجنبية كرتوشٍ أدبيةٍ، ويمكن للنخبة انتقاد مجتمعهم بشكل غير مباشر، مشيدين بممارسات الشعوب الأخرى. ولأسبابٍ سياسيةٍ، قامَ أعضاء من النخبة الرومان بنشر قصص حول السنهاليين تعكس الطريقة التي يعتقدون أن تُدار حكومتهم بها. ووصفت هذه التقارير كيف جاء السنهاليون بنظام أجبر الملك على

تأجيل حكم صادر عن مجلس الحكم، وأن النخبة السياسية يمكنها عزل الحاكم من أجل تجاوزات خطيرة، ثم تُعيّنُ وبكلِّ حريةٍ رئيساً جديداً للدولة. وتم ترويج القصص التي تتحدث عن أن هناك مملكة في الشرق البعيد كانت غنية مثل روما، ولكنها حافظت على عناصر الحكومة على غرار النظام "الجمهوري"، مما عزَّز الآمال السرية للنخبة من مجلس الشيوخ.[٤٩] وبذلك يمكن الاطمئنان بأن الاعتقاد بأن الإصلاح السياسي في روما يمكن تحقيقه؛ لأن هناك سابقة موجودة في الخارج.

وهذا هو التبادل الدبلوماسي الوحيد الموثق بين السنهاليين والحكومات الرومانية. وكان ذلك إيذاناً ببدء حقبة جديدة في الاتصالات بين رعاياهم حيث تم الكشف عن مزيد من الاتصالات التجارية واستكشافها. وهذا الحادث وبلا شك قد أبرز إدراج سريلانكا في شبكات التجارة الشرقية الممتدة من روما، وبعد الاعتراف بأن الشواطئ السنهالية إقليم صديق، فيمكن لسفن الإمبراطورية الوصول إلى المزيد من أراضي الشرق البعيد في رحلات تجارية أكثر طموحاً.

عملاء الرومان في الشرق البعيد

أدرك قادة الجيش الروماني أن بعض التجار كانوا يسافرون بمنتهى السهولة داخل أراضي الشرق البعيد. وبناءً على ذلك بدأوا في استخدام هؤلاء الرجال كعملاء في خططهم الدبلوماسية والعسكرية. وشارك التجار في جمع المعلومات الاستخباراتية وتقديم الرسائل الدبلوماسية إلى بلاط حكام الشرق. كما تم أيضاً إرسال وكلاء من روما في مهام محددة للحصول على السلع الغريبة من الأراضي التي كانت أبعد من الإمبراطورية.

واستخدم عضو بارز في العائلة الامبراطورية يدعى جرمانيكوس عملاء تدمريين في مفاوضاته الشرقية مع ملوك بارثيا. وفي عام ١٨م، تولى جرمانيكوس القيادة العسكرية في المقاطعات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، وكان مكلَّفاً بإعادة

تنظيم هذه المناطق الحدودية. واعتراف جرمانيكوس بحكام أرمينيا وقلَّل من الممالك الشرقية الصغيرة مثل كابادوكيا، وكوماجيني وجعلهما مقاطعات تابعة للإمبراطورية الرومانية.[٥٠] وفتح أيضاً قنوات اتصال مع عددٍ من الممالك التابعة للفرثيين. وكان واحداً من عملائه في هذه التعاملات الدبلوماسية تدمرياً يدعى ألكسندروس، وربما كان تاجراً له علاقات سابقة وعلى مستوى عالٍ في هذه الممالك.[٥١] وهناك نقش من تدمر يحيي ذكرى بعثة دبلوماسية مهمة بقيادة ألكسندروس. وللأسف أن هذا النص مجزأ كما يلي:

> ألكسندروس... [ال] تدمر... قام بتنفيذ... وأرسله جرمنيكس إلى... من مملكة ميسان وإلى أورابزيس..... سامسيجيرام، الملك الأعظم.[٥٢]

حكم أورابزيس مملكة ميسان الصغيرة التابعة للمملكة البارثية على رأس الخليج العربي. ويذكر النص أيضاً لفظة "الملك الأعظم"، التي قد تدل على المراسلات الرسمية مع حاكم بارثيا. ولا تكشف المصادر الباقية أي شيء آخر عن الهدف أو المغزى من هذه المبادرة الدبلوماسية، حيث أصيب جرمانيكوس بمرض شديد وتوفي في ظروف غامضة في آواخر عام ١٩م.

كما أرسلت السلطات الرومانية العملاء شرقاً للعثور على مواد معينة نادرة لا يمكن الحصول عليها من خلال القنوات التجارية العادية. ويصف بلني كيف تم إرسال فارس روماني في عهد نيرون في مهمة إلى أراضي البلطيق شمال أوروبا للحصول على مخزونات كبيرة من العنبر من أجل مجموعة مهمة من الألعاب الشاقة.[٥٣] كما تم إرسال وكلاء إلى الشرق البعيد وتصف المصادر الحلقات التي حدثت في القرن الثالث عندما كانت هذه الرحلات جديرة بالاهتمام.

عندما استعاد الإمبراطور الروماني أورليان مصر في العام ٢٧٣م، حصل على نابين كبيرين من أنياب الفيل من منافسه المهزوم ويُدعَى فيرموس. ولقد أفادت الأنباء

أن أورليان كان يعتزم إرسال ممثلين عنه إلى الهند للحصول على المزيد من هذه الكائنات الاستثنائية. وبحسب المصدر:

> يقال إن فيرموس كان عنده نابان من أنياب الفيل، طولهما عشرة أقدام. خطط أورليان لإضافة نابين آخرين ليصنع عرشاً يضع عليه تمثالاً لجوبيتر مصنوع من الذهب ومرصع بالمجوهرات وعليه سترة. وتوقع أن يوضع هذا التمثال في معبد الشمس، وطلب المشورة من كهنة جبال الأبينين.(٥٤)

كما تلقى أورليان أيضاً عباءة أرجوانية من ملك ساساني من بلاد فارس قيل إنه حصل على هذا القماش من مناطق أبعد من الهند. وتم عرضه في معبد جوبيتر على تلة الكابيتول. وقد أرسل الحكام الرومان اللاحقون عملاء للحصول على مزيدٍ من هذه المواد، ولكن لم يوفق كل في مهمته. وتفيد المصادر:

> أمر أورليان وبروبس وبعدهما دقلديانوس بالبحث بجديةٍ أكثر عن هذا النوع من الصبغة الأرجوانية. وأرسلوا عملاءهم الأكثر قدرةً، ولكن مع ذلك لم يتمكنوا من العثور على هذه الصبغة.(٥٥)

سجلت هذه الأحداث في المصادر التاريخية؛ لأنها تمثل إخفاقات بارزة عندما لم يعد الأباطرة قادرين على تلبية التوقعات، على الرغم من ادعائهم المستمر بالسلطة "العالمية". وفي أوج ازدهار الإمبراطورية، عندما كانت طرق التجارة الشرقية نشطة، تم إرسال بعثات رومانية مشابهة للحصول على أشياء أو حيوانات خاصة دون صعوبة.

كما استخدم القادة الرومان أيضاً التجار للقيام بمهام دبلوماسية خطيرة، فعلى سبيل المثال في العام ٥٨م حدث صدام بين روما وبارثيا على مملكة أرمينيا الشمالية المتنازع عليها. وخلال هذه الأزمة التقى القائدُ الرومانيُّ كوربولو دبلوماسيينَ من إقليم مهم يدعى هيركانيا على الحافة الشرقية لمملكة الفرثيين. وقد ثارت هيركانيا ضد بلاش

ملك الفرثيين، ودعمت مَنْ ينافسه على منصب الملك. لكن الصراع الذي أعقب ذلك قد نجح في صرف نظر "بلاش" عن أرمينيا والخلاف المتصاعد مع روما. يقول تاكيتوس:

> وكان انتصار الرومان على أرمينيا أسهل؛ لأن البارثيين قد تم تشتيت انتباههم وجهودهم بالحرب ضد الهيركانيين. ولقد تم إرسال ممثلين هيركانيين إلى الإمبراطور الروماني لطلب التحالف، ولفت الانتباه إلى أنهم يحتجزون "بلاش" كعربونٍ للصداقة.(٥٦)

كان الهيركانيون يؤمِّلون من تصعيد النزاع الأرمني إضعاف شأن "بلاش"، وتعزيز وضعهم العسكري في الشرق. وعليه واجه "بلاش" حرباً على جبهتين.

قام الرومان بجهودٍ خاصةٍ؛ لضمان عدم أسر الدبلوماسيين الهيركانيين أثناء عودتهم من قبل أعدائهم الفرثيين. يقول تاكيتوس:

> عندما كان هؤلاء المبعوثون في طريق عودتهم إلى وطنهم، أدرك كوربولو أنههم بعد عبور نهر الفرات سيتم اعتراضهم من قبل أعدائهم. لذلك أرسل معهم مرافقين لحمايتهم حتى يصلوا إلى شواطئ البحر الأحمر. وهكذا وبتجنب الأراضي البارثية، عادوا إلى أوطانهم سالمين.(٥٧)

وتحت الحراسة الرومانية صعد الهيركانيون على متن سفينة تجارية رومانية مغادرة لمصر باتجاه شمال غرب الهند. وفور الوصول إلى الهند وسيثيا أبحروا شمالاً عبر أراضي السند من خلال باختريا حتى وصلوا إلى هيركانيا.[٥٨] ويشير هذا الحادث إلى أن الأراضي في آسيا الداخلية كانت مهيأةً للشروع في الاتصالات السياسية مع روما، وأن هذه الجهود كانت تنطوي على محاولات جادة لتقويض السلطة السياسية في بارثيا.

بعثة جان ينج إلى روما

في بداية العقد السابع الميلادي شنت إمبراطورية الهان سلسلة من الحملات العسكرية لاستعادة السيطرة على ممالك تاريم. وكانت ولايات التاريم مستقلة إلى حدٍ

كبيرٍ عن الحكم الصيني لمدة قرن تقريباً، ووقعت كثير من الممالك الشمالية تحت هيمنة كيونجنو راكبي الخيول الذين كانوا يسيطرون على السهول الآسيوية. وباستخدام مزيج من الدبلوماسية والقوة العسكرية، هزم قائد الهان بان تشاو الكيونجنو واستعاد السلطة الصينية على ممالك التاريم.

أعادت هذه الفتوحات فتح الاتصالات الصينية مع آسيا الوسطى، وخلال هذه الفترة وصلت شائعات عن قوة هائلة جديدة في الغرب البعيد الوصول إلى سلطات الهان. وخلال هذه الفترة اعتمد الصينيون اسم *دا تشين* ، أو "الصين العظمى" مقابل الإمبراطورية الرومانية البعيدة.(٥٩) وبالنظر الى اسم *دا تشين* نجده يشير إلى أن الهان كانوا على علم بأن الدولة الرومانية ذات حضارة قوية تضاهي إمبراطوريتهم بسيطرتها على الكثير من الأراضي والموارد. يقول *هوى هانشو*:

> جميع أفراد شعب *دا تشين* يتمتعون بطول القامة والأمانة. وهم يشبهون تماماً شعب الصين وهذا هو السبب وراء تسمية هذه الدولة باسم *دا تشين*.(٦٠)

وتشير التقارير الصينية أن الإمبراطورية الرومانية جمعت جميع "الأشياء الثمينة والنادرة" من الممالك الأجنبية الأخرى وذلك لأن تجارهم كانوا رجال أعمال شرفاء.(٦١) ويضيف *فايلو*:

> الشعب كان طويل القامة وفاضلا مثل الصينيين، لكنهم يرتدون الملابس الغريبة. وكانوا يريدون دائما التواصل مع الصين، ولكن بارثيا تغار من أرباحها، ولن تسمح لهم بالمرور (وصولا إلى إمبراطورية الهان).(٦٢)

وقد أثارت هذه التقارير اهتمام الصينيين الذين استماتوا في سبيل إجراء اتصال مع إمبراطورية أخرى قوية، ولكن بارثيا كانت دائماً حائلاً بينهما.

تم تجهيز قوات مشاة الهان للتغلب على جيوش السهول الذين اعتمد عليهم البارثيون وكيونجنو لقوتهم العسكرية. وكان لدى جيش الهان ورش عمل تعمل على

تصنيع أسلحة من الصلب تدوم أكثر من أي شيء قد تصنعه الإمبراطورية الرومانية. عرفت السلطات الرومانية بوجود هذا المعدن، لكنها لم تدرك أنه تم إنتاجه بواسطة تقنيات تصنيع خاصة. وبدلاً من ذلك كان ينظر إليها على أنها أحد الموارد الخارجية المتاحة الوحيدة في الشرق البعيد، مثل الأقمشة الحريرية. وفي هذا العصر، حصل التجار الرومان على الصلب الصيني من الوسطاء في التاريم، والذين أشارت المصادر الكلاسيكية إليهم باسم *سيريس* أو "أناس الحرير" وكتب بلني في هذا الخصوص ما يلي:

> من كل أصناف الحديد أفضلها هو سيريتش. وأرسل *السيريس* لنا الحديد. . . ولكن ثاني أفضل نوعية من الحديد ينتمي إلى بارثيا.[٦٣]

تلقى البارثيون إمدادات الصلب من آسيا الوسطى، وهذا مكّن نخبة الفرسان من الوصول إلى المدرعات والأسلحة التي كانت أكثر تقدما من نظيراتها الرومانية.

في هذا العصر، أثبت الرومان تفوقهم العسكري في أوروبا الغربية، ولكن محاولتهم الأولى لتوسيع الإمبراطورية باتجاه بلاد فارس انتهت بالهزيمة على يد قوة صغيرة من سلاح الفرسان الفرثيين. في عام ٥٣ قبل الميلاد، حاول رجل دولة طموح اسمه كراسوس غزو بلاد ما بين النهرين بجيش روماني كبير يتألف مما لا يقل عن أربعين ألف جندي من المشاة. وفي هذا العصر لم يكن لدى الرومان خبرة كافية بحرب السهول.[٦٤] وقد تصدت قوة أصغر قوامها عشرة آلاف بارثيي للمعتدين الرومان في سهل حران الصحراوي كان معظمهم من الرماة. سرعان ما تغلب البارثيون على سلاح الفرسان الروماني باستخدام الفرسان المدرعة بالسلاح، والتي كانت ترتدي الدروع الكثيفة والمجهزة برؤوس الرماح الصلبة.[٦٥] ثم حاصرت الفيلق لقتله بوابل من السهام التي تطلق من الأقواس القوية بعيدة المدى. وشكلت الفيالق جدراناً من الدروع المتشابكة، ولكن الهجوم كان لا هوادة فيه. وكان قائد البارثيين قد نظم الإبل على مراحل لتسليم إمدادات جديدة من السهام حيث كانت هذه السهام تطلق على

مسارات عالية لتسقط على الفيلق من فوق. وكانت تقذف الأسهم أيضا في الصفوف بقوة هائلة حتى التصق الرجال بدروعهم، أو تسمرت أقدامهم في الأرض جراء سقوط القذائف.[٦٦] وكتب بلوتارخ ما يلي:

> أطلقوا طلقات من الأقواس كانت كبيرة وقوية ومنحنية وذلك لدفع قذائفهم بقوة كبيرة... كان الرومان مترصين معا ويسقطون على بعضهم البعض. كان الرجال يطعنون ويتشنجون من الألم، ويدكون بالسهام حتى إنهم إما انفصلوا بجراحهم، أو حاولوا الانسحاب بالقوة لمجرد أنهم وجدوا أن الرؤس الشائكة قد اخترقت الأوردة ومزقت الأوتار. لقد مات الكثير وكان الناجون عاجزين ولا يمكنهم القتال.[٦٧]

وكان مجموع من قتل حوالي عشرة آلاف جندي روماني، وتم إلقاء القبض على نفس العدد في موقع المعركة، أو أسروا أثناء تراجعهم الفوضوي ناحية سوريا.[٦٨] واستقر الأسرى الرومان في بارثيا الشرقية بالقرب من مدينة مرو على حافة السهول الآسيوية الشاسعة.[٦٩]

لو علم الرومان بحقيقة أن الصلب لم يكن مادة شرقية نادرة ، وإنما مادة يمكن إنتاجها صناعيا، لقاد ذلك إلى قيام ورش العمل العسكرية الرومانية بإنتاج هذا المعدن على نطاق واسع. وهذا سيكون بدوره كافيا لتجهيز فيالقهم المتميزة بالذخيرة والأسلحة المتفوقة.[٧٠]

وعلى عكس الرومان، تم تزويد سلاح المشاة عند الهان بالنشابيات القوية التي يمكن أن تفوق مدى قذائف الرماة من السهول. النشابيات الإغريقية الرومانية كانت أجهزة بسيطة نسبياً يحتفظ بها إلى حدٍ كبيرٍ من أجل لعبة الصيد. على النقيض من ذلك، كانت نشابيات الهان روائعَ هندسية ذات آليات متطورة للزناد البرونزي، وأجهزة رؤية شبكية؛ لتحسين دقة الهدف. ويمكن حشو هذه النشابيات مسبقاً، والاستعداد لإطلاق النار عندما تظهر قوات العدو داخل حيز النطاق. ومع ذلك، كفل

الحظر الذي فرضه الهان بعدم تصدير هذه الأسلحة من الإمبراطورية عدم تقليدها من قبل الأجانب، وربما الممالك المعادية.[٧١]

كما استخدم الهان أيضاً الدبلوماسية بهدف إشراك قوات السهول الحليفة في حملات جيوشهم. وفي العقد الثامن الميلادي، شكل بان تشاو تحالفاً عسكرياً مع الكاشيون من باختريا لإطلاق حملة مشتركة ضد السغديين. وفي عام ٩٠ م خرقت كوشان هذه الاتفاقات، وأعلنت الحرب ضد الصينيين. في الصراع الوجيز الذي أعقب ذلك، هزم الجيش الصيني قوة كبيرة من الكوشان. ثم أعاد الصينيون المنتصرون التفاوض على الاتفاقات مع كوشان، وواصلوا تعزيز سيطرتهم على أراضي التاريم الغربية.[٧٢] ومع هدوء الكوشان وتمركز القوات الصينية بالقرب من جبال بامير، كان الطريق واضحاً الآن للهان لاستكشاف اتصالات دبلوماسية أكثر بُعداً.

عندما كان بان تشاو يسعى للحصول على حلفاء جدد في الغرب البعيد للمساعدة في الحفاظ على السلطة الصينية على آسيا الوسطى، انتقلت أفكاره إلى روما. وفي عام ٩٧م بعث سفيراً كبيراً اسمه جان ينج في بعثة برية صعبة لإقامة اتصال مع الإمبراطورية الرومانية.[٧٣] كانت المعلومات الصينية بشأن الطريق البري إلى الأراضي الرومانية غير موثوقة، ولكن لديهم تقارير تفيد بأن روما تقع في مكانٍ ما غرب المحيط الهندي.[٧٤] لذا سافر جان ينج عبر أراضي السند ومرَّ متخفياً من جنوب إيران، حيث كان النفوذ السياسي للفرثيين أضعف.[٧٥] وتخبرنا السجلات الصينية كيف تمكن جان ينج – بعد رحلة طويلة ومؤلمة –من الوصول إلى مملكة ميسان على رأس الخليج العربي.[٧٦] ويقول *هوى هانشو*:

> أرسل الحامي العام بان تشاو يينج جان مبعوثاً في مهمة إلى الإمبراطورية الرومانية. ووصل إلى تياوجي (مملكة ميسان) على ساحل البحر الكبير (المحيط الهندي).[٧٧]

ومن المؤكد أن جان ينج قد ابتأس عندما اكتشف أن الخليج العربي لم يكن الطرف الغربي من المحيط، ولكنه مجرد مدخل لبحرٍ شاسع. ومع ذلك صمَّم على استكمال مهمته، وبالتالي استعد للقيام برحلة بحريةٍ حول الجزيرة العربية للوصول إلى روما. وما لم يدركه جان ينج أن المسافة من مملكة ميسان إلى الشمال براً لم تكن سوى رحلة قصيرة عبر بلاد ما بين النهرين إلى الأراضي الرومانية.

اقترب جان ينج - الذي بدا للجميع أنه رجل أجنبي غني وغريب - من البحارة في مملكة ميسان، وطلب منهم أن يأخذوه في رحلة حول الجزيرة العربية. ومن المؤكد أن البحارة قد وجدوا فرصتهم لاستغلال هذا المسافر الذي وبسذاجة لم يكن عارفاً محيطه أو مقصده. ومن هنا أخبر التجار جان ينج أن الإبحار حول الجزيرة العربية يستغرق بضعة أشهر فقط، لكن عليه أن يدفع مبلغاً كبيراً مقدماً؛ لكي يتم تجهيز السفينة بالمؤن الكافية لمدة ثلاث سنوات. ولقد قدموا مبرراتهم، وهي أن الطقس الذي لا يمكن التنبؤ به قد يقود إلى حدوث تأخيرٍ كبير. يقول *هوى هانشو*:

> عندما كان على وشك المرور عبر البحر الكبير، قال له البحَّارة على الحدود الغربية لآنخي [بارثيا] إن البحر واسع جداً. ويمكن اجتيازه في غضون ثلاثة أشهر، ولكن إذا كانت هناك رياح غير مواتية، فإن الأمر قد يستغرق عامين. لهذا السبب أخذ أولئك الذين يبحرون على هذا البحر معهم على متن السفينة مؤنة تكفي لثلاث سنوات.[٧٨]

ولكن كان لخداعهم أثر عكسي، فلقد فجع جان ينج من احتمال وجود فترات طويلة ورحلة خطيرة إلى المجهول. وبدأ يشعر بالحنين إلى الوطن حيث أثار منظر البحر غير المألوف لديه مشاعر الرهبة. ويسجل *هوى هانشو* القلق الذي عبر عنه جان ينج:

> هناك شيء ما في هذا البحر يجعل الشخص يشتاق لوطنه. وكثير من الرجال فقدوا حياتهم فيه، ويمكن أن يموت رجل من حنينه للوطن. مقدِّراً كل هذا، لم يذهب جان ينج إلى أبعد من ذلك.[٧٩]

عاد جان بينج إلى آسيا الوسطى ليقدم تقريراً إلى بان تشاو قال فيه إنه لا يمكن الوصول إلى الأراضي الرومانية إلا من خلال عبور البحر الغادر. وأوضح في تقريره أنه لا يوجد طريق بري سهل يربط بين الإمبراطوريات.(٨٠) ونتيجة لذلك، اضطر بان تشاو إلى الاستنتاج بأن روما لا يمكنها أن تقدم أي مساعدة إلى الصين في صراعها من أجل الهيمنة على آسيا الوسطى. وبناءً على هذا الاعتقاد الخاطئ، لم يتم إرسال مزيد من البعثات الدبلوماسية لمحاولة الاتصال مع روما.

لو كان جان بينج قد نجح في مهمته المعينة لكان بإمكانه الوقوف أمام الإمبراطور تراجان خلال السنة الأولى من حكمه، حيث كان تراجان الفاتح العسكري العظيم، الذي عمل على توسيع الإمبراطورية الرومانية إلى أبعد حدودها، وسعى للحرب ضد البارثيين. ولو قدر لجان ينج مقابلة الإمبراطور في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الإمبراطورية، لأدى مثل هذا الاتصال بين روما والصين إلى سلسلة من الأحداث التي قد تغير مستقبل هاتين الحضارتين إلى الأبد.

الاتصالات الصينية بـــ "مينج تشي تو لي " Men-Chi Tou Le

في عام ١٠٠م، أعاد احتلال الهان لممالك التاريم وضع القوات الصينية بالقرب من جبال بامير للتفكير في توسع سياسي آخر، إلا أن بان تشاو، الذي خاض حروباً على مدى ثلاثة عقود، بدأ يشعر بآثار السن واعتلال الصحة. ووصلت الأنباء بأن *دا تشين*، الإمبراطورية الرومانية، بعيدة المنال، وذلك قبل فترة وجيزة من طلبه بإعفائه من قيادته والعودة إلى الصين.

أرسل بان تشاو ابنه إلى إمبراطور الهان لتقديم طلب التقاعد. ولتذكير الهان بإنجازاته، كما بعث أيضاً ممثلين أجانب من المناطق البعيدة التي قد وصل إليها في

حملته العسكرية. وكان من بين هؤلاء الأجانب الغريبين ممثلون من أرضٍ بعيدة تسمى "مينج تشي وتو لي".[٨١] يقول *هوى هانشو* في هذا الصدد:

> جاءت ولايتا مينج تشي، وتو لي البعيدتان لتقديم ولائهما من خلال إرسال مبعوثين لجلب الجزية.[٨٢]

وتسجل المصادر الصينية أن مينج تشي تو لي كانت على بعد أكثر من ٤٠٠٠٠ لى (li)• عن لويانج عاصمة الهان. وقد يشير ذلك إلى الاتصال مع منطقة غربية ربما كانت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية.[٨٣] ويرى العلماء أن هناك تقارباً صوتياً بين الكلمات الصينية "مينج تشي تو لي"، والكلمة "مقدونيا".[٨٤] ومع إمكانية قبول مثل هذا الرأي، إلا أن هذه المجموعة قد تكون مجموعة التجار الذين كانوا يتبعون روتيناً شفهياً، الذي أدى إلى عبورهم بارثيا بسلام. يخبرنا بطليموس أنَّ رجلَ أعمال مقدونياً يدعى "مايس تيتيانوس" أرسل عملاء إلى الشرق الأقصى، ومن المؤكد أن هذه المجموعة كانت "مينج تشي تو لي" التي جاء ذكرها في التقريرات الصينية. وربما أكد هؤلاء التجار أنهم قد أرسلوا من قبل شخصاً كانوا يدعونه "السيد ماكس تيتوس". وقد يكون نطق هذا الاسم هكذا " مايس تشيجاس تيتوس"، أو "مينج تشي تو لي".

طبقاً لمعلومات بطليموس، أرسل مايس عملاءه للتجارة مع محطة تجارية بالقرب من نهر البامير تسمى البرج الحجري.[٨٥] ولكن عندما وصلوا إلى هذه المنطقة البعيدة، قابلوا "شعب الحرير"، الذي كان يسميهم "بطليموس *السيريس* *Seres*". أخذ *"السيريس"* هذه المجموعة الرومانية في رحلة شاقة دامت سبعة أشهر عبر مساحات شاسعة من الأراضي القاتمة التي دمرتها العواصف العنيفة.[٨٦] كانت وجهتهم مدينة داخلية بعيدة كان بطليموس يدعوها "سيرا"، أي "عاصمة الحرير". كان هذا الحدث غير

• وحدة صينية لقياس المسافة تساوي ٠,٦ كم تقريباً (المترجم).

عادي، بحيث أَلَّف "مايس" كتاباً حول هذه الرحلة، واستخدم الجغرافيون الرومان اللاحقون هذه المعلومات لتقدير المدة المحتملة لقارة آسيا.[٨٧] يقول بطليموس:

> كل هذا أصبح معروفا من خلال الفرصة التي وفرتها التجارة... كان مايس ويسمى أيضاً تيتيانوس مقدونيا وتاجراً بالوراثة. وألَّف كتاباً يعطي مقياساً لآسيا ليس فقط من خلال زيارته لسيريس شخصياً، ولكن عن طريق إرسال عملاء قابلوهم في الواقع [٨٨]

وتشير معلومات مثيرة للاهتمام كيف تمكَّن فريق مايس من اجتياز مدن الفرثيين مثل قطيسفون وأكباتنا. "مايس" هو اسم سوري، ومن المرجح أن مايس تيتيانوس كان "مقدونياً" من الناحيتين العرقية والثقافية. يوحي اسم "تيتيانوس" بأن عائلته قد حصلت على الجنسية الرومانية من خلال الرعاية الكريمة لشخصٍ ما اسمه باللاتينية "تيتيوس". وأشير إلى أن أسلاف مايس خدموا في الحكومة الرومانية في أواخر عصر الجمهورية وفي بداية عهد أغسطس. هناك رجل اسمه "م تيتيوس ل" كان قنصلاً، وفي ٣١ قبل الميلاد، أصبح فيما بعد حاكماً لسوريا في حوالي ١٣ قبل الميلاد.[٩٠] ويكشف سترابون عن أن م تيتيوس ساعد على إبرام التسوية السلمية المتفق عليها بين أغسطس وفراتيس ملك الفرثيين. ولقد استضاف تيتيوس هذا محادثات مع سفراء الفرثيين، كما حضرها أيضاً كذلك، وكان يُعْهَدُ إليه أيضاً برعايةِ الأمراء الذين يُسلَّمُونَ كرهائن إلى السلطة الرومانية.[٩١] وعلى ما يبدو أن هذه الاتصالات أعطت "م تيتيوس" وعائلته تأثيراً دائماً بين نبلاء الفرثيين. وبعد عقودٍ، ربما استطاع سليله "مايس" استغلال هذا الاتصالات العائلية لإرسال عملائه من خلال مركز مملكة الفرثيين في مهمة للعثور على البرج الحجري.

كان الإسكندر الأكبر قد وطَّن عناصر من جيشه المقدوني في الأراضي الفارسية حتى سغد. وربما استغلت مجموعة مايس هذا التراث الثقافي المشترك أثناء مرورهم عبر هذه المواقع النائية في طريقهم إلى البامير. وعندما التقى الهان لأول مرة بالحزب

التجاري المقدوني في البرج الحجري، وضعوا، وعلى ما يبدو، في عهدة الحراسة الصينية المسلحة وتم اصطحابهم إلى بان تشاو. ثم أرسلهم القائد لاصطحاب ابنه إلى القصر الإمبراطوري. وكان الفريق المقدوني محنكاً بما فيه الكفاية لاتباع توجيهات الهان، دون أي مقاومة، أو احتجاج. وحدث هذا الاتصال في وقتٍ كان فيه مندوبو العديد من الممالك الصغيرة غير المعروفة من قبل يصلون إلى عاصمة الهان ليعلنون رسمياً اعترافهم بالإمبراطورية الصينية. وبالتالي تقدم السجلات الصينية قصة مينج تشي تو لي كواحدةٍ من هذه الاستقبالات الدبلوماسية.

وجد فريق مايس صعوبة في التواصل مع مضيفيهم الصينيين. وفي حقيقة الأمر، فإنهم لم يتعمدوا إساءة تمثيل بعثتهم التجارية باعتبارها تواصلاً دبلوماسياً. ومن المؤكد أنهم كرروا الحديث عن أصولهم وغرضهم بإجراء عمليات تبادل للسلع الثمينة نيابةً عن سلطة بلادهم. غالباً ما اعتاد التجار في الشرق البعيد فتح قنوات دبلوماسية بين الدول الأجنبية. لذلك إذا كان الهان قد كشفوا عن الطابع التجاري لمجموعة مايس، فإنَّ ذلك لن يمنع استقبالهم كمبعوثين سياسيين.

في بلاط الهان، سلَّم المقدونيون الحائرون سلعهم من الحرير والقطع النقدية الذهبية الرومانية كـ"جزية" لبلاط الإمبراطور الصيني هي. لم يكن لإمبراطورية الهان عملة ذهبية شائعة، وكانت تسبك معظم قطعهم النقدية في قوالب زخرفية. ولم يسبق للصينيين أن رأوا مثل هذه القطع النقدية الذهبية الرومانية من قبل وظنوا أن هذه الأقراص الذهبية مثل صورهم الإمبراطورية الموجودة على الأختام التابعة لملك "مينج تشي تو لي". وبالتالي يقول *هوى هانشو* ما يلي:

> في فصل الشتاء أرسلت ولايتان، من المناطق الغربية التابعة لـ"مينج تشي تو لي" مبعوثين لتقديم الجزية [إلى الصين]، وجلبوا معهم الحرير وخاتم ملكهم الذهبي.[٩٢]

طبقاً للبروتوكول الدبلوماسي الصيني يجب على المقدونيين أن يكونوا محمَّلين بالهدايا التي تبرهن على ثروة وسيادة إمبراطورية الهان.

ولعلَّ مايس اعتبر هذه الحادثة كمشروعٍ تجاري، وعندما عاد وكلاؤه احتفظ هو بالهدايا الصينية الرائعة لنفسه. ومع ذلك كانت هذه القصة غير العادية فريدةً من نوعها بحيث شعر مايس بأنه مضطر لكتابة كتاب عن هذا الموضوع. لسوء الحظ، فإنَّ هذا العمل لم يصل إلينا، ولكن جغرافيينَ مثل بطليموس عرفوا مايس واستخدموا معلوماته. وكان أعضاء آخرون من عائلة مايسيي تيتاني يعيشون في صقلية وإيطاليا في الفترة ما بين ١٥٠م، و٢١٠م، ولكن لا يُعرف سوى القليل عن أنشطتهم.[٩٣]

تحدث هذا الكتاب الذي كتبه مايس عن اهتمام رجال الأعمال الرومان الآخرين، وكشف عن إمكانيات التبادل التجاري مع "إمبراطورية الحرير" البعيدة. لكن بطليموس لم يعرف أي شخص آخر قد سافر إلى هذا المدى في الشرق البعيد. وهذا أمر مستغرب، حيث إن أيًّا من التجار الرومان الذين حاولوا محاكاة مايس والوصول إلى الصين لا بد أنهم قد وجدوا ما يمنع تقدمهم. وفي عام ١٠٧م استفادت العديد من ممالك التاريم من تقاعد بان تشاو لطرد المسؤولين الصينيين وتأكيد استقلالهم في سلسلة من الثورات العنيفة.[٩٤] واضطرت حكومة إمبراطور الهان الجديد آن إلى التخلي عن مناطق التاريم، وتراجع الصينيون إلى حدودهم السابقة. يقول *هوى هانشو* في هذا الصدد:

> أعلنت الحكومة الإمبراطورية أنه يجب إلغاء منصب الحامي العام للمناطق الغربية، وذلك لأن هذه المناطق النائية كان الوصول إليها صعباً وخطراً. منذ ذلك الحين تم التخلي عن المناطق الغربية. وسيطر كيونجنو على الشمال فوراً واستعادوا جميع الممالك مرة أخرى. واقتحم العديد من أفرادها الحدود لأكثر من عشر سنوات بكثيرٍ من العنف والقتل.[٩٥]

وقد تم قطع الاتصالات الصينية مع آسيا الداخلية. وتلاشت من الآن وبشكل دائم فرصة إقامة اتصالات برية مباشرة بين روما والصين، اللتين كانتا قد اقتربتا من بعضهما البعض بشكل مثير.

كوشان

في عام ١٠١ بعد الميلاد غزا الجيش الروماني داسيا في مملكة ترانسلفانيا. وبعد حربين قصيرتين، غزا الإمبراطور تراجان المنطقة، وأسس مقاطعة رومانية جديدة شمال نهر الدانوب.[٩٦] وفي الوقت نفسه تقريباً، أصدر تراجان أوامره إلى سوريا بضرورة ضم مملكة الأنباط العربية العميلة إلى الإمبراطورية الرومانية باعتبارها مقاطعة شرقية جديدة.

كانت داسيا أول فتح روماني كبير لأراضٍ جديدةٍ منذ أمر كلوديوس بغزو بريطانيا قبل أكثر من ستين عاماً مضت. وفي عام ١٠٧م، عاد تراجان إلى روما للاحتفال بفتح داسيا بتنظيم سلسلة من مشاهد غير عادية في الكولوسيوم. وقد مُثلت هذه العروض المذهلة على مدى عدة أسابيع واستقطبت أعداداً كبيرة من المشاهدين من مختلف أنحاء الإمبراطورية. ويذكر ديو كاسيوس أن السفراء الأجانب كانوا جالسين بين أعضاء مجلس الشيوخ مع كبار المبعوثين الهنود بين هؤلاء الزوار، حيث يخبرنا دايو كاسيوس:

> بعد عودة تراجان إلى روما جاءته العديد من البعثات الدبلوماسية من جهات بربرية مختلفة ومنها الهنود. ولقد شهد عروضاً في ١٢٣ يوماً. وفي سياق هذه الأحداث تم ذبح ١١٠٠٠ من الحيوانات البرية والمستأنسة ومصارعة ١٠٠٠٠ رجل... وفي هذه العروض قدم تراجان للسفراء الذين جاؤوا من مختلف الممالك مقاعد في مجلس الشيوخ.[٩٧]

وربما طلب العملاء الرومان ظهور المبعوثين الهنود في نقوش الأعمدة. وطُلبت مجموعة متنوعة وهائلة من الحيوانات البرية والغريبة للمباريات، ومن المؤكد أنَّ كثيراً من هذه الحيوانات قد أُحضر من أقاليم في منطقة الشرق البعيد. على سبيل المثال، ذكر كتاب *التعريفة السكندرية* حركة مرور الأسود والنمور والفهود واللبؤات.[٩٨] ولقد أدى وصول العملاء الرومان في الهند وطلبهم الحيوانات الغريبة إلى انتشار خبر انتصار تراجان إلى ملوك الشرق البعيد، كما أكد هذا الطلب على الطموحات العسكرية لهذا الإمبراطور الجديد.

وربما كان سفراء كوشان بين ضيوف تراجان البارزين في احتفالات النصر.[٩٩] وعلى غرار الرومان، عرّف كوشان البارثيين على أنهم خصوم سياسيون يجب التغلب عليهم. وانتشرت أخبار كوشان بالفعل داخل المجتمع الروماني بالتزامن مع الاهتمام الروماني المتزايد بالهند.[١٠٠] وخلال هذا العهد الروماني جمع الكتّاب ومنهم كورتيوس روفوس، وبلوتارخ وأريان كل السير الذاتية الجديدة للإسكندر الأكبر.

قبل هذه الفترة، كان الكوشان قد قاموا بتوسيع أرضهم وظهروا كواحدةٍ من القوى الكبرى في آسيا الداخلية. ووصف الهان القتال المبكر بين كوشان والبارثيين عندما تم توحيد قبائل كوشان تحت قيادة كويولا كادفيسيس، الذي غزا بارثيا، واحتل منطقة كابول.[١٠١] ويشير يوسف بن متى إلى ذلك عندما وصف كيف هرع ملك الفرثيين بلاش للدفاع عن مملكته الشرقية ضد هجوم أجنبي مفاجئ.[١٠٢] وبحلول العقد الثامن الميلادي، كان الكوشان يعملون على إستراتيجية دبلوماسية مع الجنرالات الصينيين في أراضي التاريم، وقامت القوتان بحملات منسقة ضد عدوهما المشترك في سغد.[١٠٣] تولى ملك كوشان فيما كادفيسيس الحكم في العقد التاسع الميلادي، وبسط حكم كوشان على أراضي السند، وبالتالي حصل على ثروة لا تصدق.[١٠٤] مع تراجع

قوة الصين من أراضي التاريم، واصل الكوشان تعزيز سيطرتهم على منطقة آسيا الوسطى.

اعتبر الكوشان ملكهم مساوياً للإمبراطور الروماني. ولقد تلقب حكامهم بألقاب أجنبية، حيث استخدم كانيشكا الثاني اسم *قيصر* ليشير إلى مكانته باعتباره "قيصر" الشرق.[١٠٥] وقد جعلت التأثيرات الثقافية من الكوشان حلفاء للرومان. واستولى الكوشان على الأراضي في باختريا، التي كان يحكمها خلفاء الإسكندر الأكبر الإغريقيون. وكانت محاكم الكوشان بالتالي معترفةً باللغة الإغريقية، وتحترم التقاليد الإغريقية. في هذا العصر طورت غاندارا، في قلب كوشان، أسلوبها الخاص، من حيث الفن، والهندسة المعمارية، التي تأثرت بشدة بالثقافة الكلاسيكية.[١٠٦] ويصوِّر أحد التماثيل في غاندارا مشاهد من حرب طروادة، به جنود من البحر المتوسط يقودون حصاناً بعجلات نحو المدخل.[١٠٧] وهناك مشهد آخر يصوِّر وفاة بوذا، مُبيِّناً حضور شخصيات أجنبية، منها أحد المواطنين الرومان. وقد يكون هذا دليلاً على أن الرومان اعتنقوا ديانات شرقية، أو أنهم اعترفوا بالحضارة الكلاسيكية.

تعكس البقايا الأثرية في أراضي الكوشان القديمة، بوضوحٍ، الاتصالات مع روما. وقد أعجب "فيما" برموز السلطة الرومانية. ومن هنا أنتجوا العملات الذهبية التي كانت على غرار ما كان يتم استيراده من القطع النقدية الذهبية الإمبراطورية. وتُظهر هذه الأشياء "فيما" مرتديا أزياء الكوشان التقليدية، حيث يرتدي معطفاً طويلاً لركوب الخيل وخوذة ذات قبة مرتفعة مزينة بشرائط. وتظهر أيضاً الآلهة الهندية في هذه القطع النقدية والحروف التي تحيط بهذه الصور من اللغة الإغريقية المعطوبة.[١٠٨]

كان بإمكان المندوبين الكوشان التواصل باللغة الإغريقية. وتساءل حشود من المتفرجين في احتفالات الداسيا عن العمل الذي كان بين إمبراطورهم وبين هؤلاء

الزوار البعيدين والغريبين. ويشير بعض العلماء إلى أن الاتصالات بين فيما وتراجان ربما أيقظت مرةً أخرى طموحات الرومان بشأن غزو بارثيا.[١٠٩] وبرز موضوع الفتوحات الشرقية عندما كتب بلوتارخ عن المعركة النهائية بين قيصر وبومبي. حيث قال في هذا الصدد:

> هل يمكن أن يقاوم الفرسان السكيثيون، أو السهام البارثية، أو الأثرياء الهنود ٧٠٠٠٠ من الجنود الرومان المسلحين تسليحاً جيداً تحت قيادة قادة مثل بومبي أو قيصر؟[١١٠]

أشار بعض العلماء إلى أن بلوتارخ كان يشير إلى الجدل المعاصر حول حجم الجيش الروماني اللازم لقهر الهند.[١١١] وربما شجع هذا النوع من التكهنات تراجان على النظر شرقاً لمزيدٍ من الفرص لكسب مزيدٍ من الشهرة العسكرية.

كان منصب الإمبراطور استبدادياً في الحكومة الرومانية، حيث كان هذا الشخص بمفرده القادر على تحديد الإجراءات والسياسات الرئيسية للدولة.[١١٢] وفي عام ١١٣م، صعَّد تراجان عمداً الخلاف حول أرمينيا، وأثار أزمةً مما أعطاه الفرصة لتحقيق طموحاته في مزيد من الفتوحات. ويخبرنا دايو كاسيوس أن تراجان شنَّ حربه ضد بارثيا من أجل "كسب مجد عسكري"، ولكن أرباح التجارة الشرقية قد تكون حافزاً إضافياً. ووضع أغسطس، الذي كان يأمل في السيطرة على الأرباح التجارية من الممالك العربية الجنوبية، آخر مخطط رئيسي لغزو الشرق.[١١٣] ومنذ عصر تيبريوس كانت الحكومة الإمبراطورية على علمٍ بأن التجارة الشرقية كانت تنقل الثروة الرومانية إلى بلاد فارس.[١١٤] وجعلت هذه الثروة التجارية من بلاد ما بين النهرين هدفاً مربحاً للمجد العسكري.

وبيَّنت أعمال إمبراطور روماني لاحق يُدعَى كراكلا – وهو الذي خطَّط أيضاً لهجوم غير مبرر على بارثيا – دوافع رومانية أخرى لغزو الشرق. كتب كراكلا لملك

الفرثيين يشير إلى أنه ينبغي توحيد المنطقتين السياسيتين لهما تحت وريثٍ واحدٍ، ويكشف التقرير أمل الرومان في تحقيق ذلك بضم بارثيا لإمبراطوريتهم. وسوف تكون نتيجة هذا التوحيد "إمبراطورية واحدة بدون منافس"، ويمكن لهذه الإمبراطورية أن "توحد بسهولة العالم المأهول بأسره تحت سلطة واحدة".[١١٥] أضيف إلى هذه الطموحات السياسية التوقع بترتيبات تجارية مربحة جديدة بين بارثيا وأراضي البحر المتوسط. يقول هيروديان Herodian:

> بما أن البارثيين يقومون بتوريد التوابل والمنسوجات الممتازة والرومان يقومون بإنتاج المعادن والمواد المصنعة، فإنَّ هذه العناصر لم تعد نادرة، أو يتم تهريبها من قبل التجار. بدلاً من ذلك، عندما يكون هناك عالم واحد تحت سلطة عليا واحدة، يمكن لكلا الشعبين التمتع بهذه السلع الشائعة، وتبادل مشاركتها.[١١٦]

ومن المرجح أن تراجان كانت له هذه الأهداف المشتركة، وسعى في إثراء إمبراطوريته الجديدة من خلال التبادل الحر للسلع التجارية الشرقية.

وبدأ موضوع الإسكندر الأكبر بصفته فاتح العالم يظهر عدة مرات في التقارير التي وصلت إلينا، التي أعقبت حرب تراجان والبارثيين، فمن المحتمل أن الإمبراطور الروماني قد لعب بشكل متعمد على هذه المقارنات؛ للتأكيد على نطاق طموحه، واحتمال نجاحه.[١١٧] ولقد اقترب تحقيق الطموح الروماني للمجد العسكري والثروة الشرقية عندما وصل الإمبراطور إلى الخليج العربي. وقف تراجان على الشاطئ حيث تفحصه قبل ٢٠ عاماً المبعوث الصيني جان ينج ، ويئس من الوصول إلى روما. ووصف دايو كاسيوس الإمبراطور بأنه كان يراقب السفن التجارية وهي متوجهة إلى الهند، ويحلم بالفتوحات التي من شأنها أن تحاكي الإسكندر، ويأخذ القوات الرومانية إلى أقاصي آسيا. لكن تراجان مات في ذات السنة.

طموحات الرومان في الاستيلاء على الشرق البعيد تم بعثها مرة أخرى تحت حكم الإمبراطور هادريان. ومع ذلك، واصلت الحكومة الرومانية استقبال مبعوثين من الشرق البعيد. تعدُّ مصادر هذه الفترة شحيحةً، وتظهر السجلات الباقية من هذه المصادر الصبغة البلاغية الواضحة. ويشير كتاب (*Historia Augusta*)، إلى أنَّ عدداً من ملوك كوشان أرسلوا كممثلين إلى روما خلال هذا العصر، حيث جاء فيه: "أرسل ملوك باختريا سفراء لطلب صداقة هادريان".[١١٨]

استمرت الاتصالات الدبلوماسية مع الكوشان في عهد أنطونيوس بيوس الذي حكم من ١٣٨م إلى ١٦١م. يقول أوريليوس فيكتور:

> أرسل الهنود والباختريون والهيركانيون السفراء إلى أنطونيوس. وقد سمعوا جميعاً عن روح العدالة التي تمتع بها هذا الإمبراطور العظيم، العدالة التي علت بوسامته ورزانته، وقوامه الممشوق والقوي.[١١٩]

وأشار العلماء إلى أنَّ هذه الصفقات السياسية كانت محاولات لتقويض سلطة الفرثيين في الشرق البعيد.[١٢٠] وحقق الأباطرة هيبةً كبيرةً من استقبال مبعوثين الكوشان، ولكن الغرض من هذه الاجتماعات لا يزال غامضاً. في هذا العصر، واصل الكوشان اتصالاتهم مع الحكومة الرومانية. وتظهر صور الملك هوفيشكا، الذي جاء إلى السلطة في عام ١٤٠ تقريباً على العملة الذهبية للإمبراطورية الرومانية. وتشمل القطع النقدية صورةً للإله اليوناني المصري سيرابيس، الذي يظهر أيضاً على بعض الإصدارات الرومانية. وتمثل غيرها من قطع الكوشان النقدية "الغجر"، تجسيداً لروما، بوصفها آلهةً كلاسيكيةً في أسطورة "ريوم" التي سجلت بحروفٍ إغريقية.[١٢١] وربما تمثل هذه الصور العلاقات التجارية، ولكن من الممكن أن تشير أيضاً إلى الاتصالات السياسية والانتماءات الخارجية.

كان الإمبراطور الروماني أنطونيوس هو آخر مَنْ حصل في هذا العصر على اعتراف من الممالك الهندية. وكان عهد ماركوس أوريليوس عهداً سيئاً على الإمبراطورية الرومانية جراء تفشي الوباء الأنطوني وبداية حروب طويلة ضد القبائل الجرمانية المعادية التي كانت تهدد الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية. ولكل هذا خسرت روما الكثير من هيبتها الدولية. ومع تزايد الحروب الأهلية داخل الأراضي الرومانية، لم يولِ الأباطرة الرومان اهتماماً كبيراً للأمور السياسية البعيدة. وأصبحت سياسة الحكومة، على نحو متزايدٍ، تهدف فقط إلى البقاء في عالم غامضٍ، وأكثر عنفاً، بينما سقطت شؤون الشرق البعيد ببساطة من الحسبان.

المعرفة الرومانية بصين الهان

كانت السلطات الرومانية قد سمعت العديد من الشائعات عن وجود مساحات كبيرة من أراضي الشرق الأقصى تدعى "الصيناي"، أو "ثينا" تقع وراء سيريس التاريم. وكانت هذه السلطة البعيدة هي إمبراطورية الهان، وهي النظام السياسي الكبير الذي كان ينافس روما من حيث نطاق أراضيها، وعدد سكانها.

في عصر أغسطس كان الرومان يعتقدون أن القارة الآسيوية تنتهي في مكان شمالي نهر الجانج مباشرة. ومن هناك كانوا يعتقدون أن مساحة آسيا يجب أن تتجه نحو الشمال الغربي لتنضم إلى مناطق السكيثيين الواسعة في السهول الآسيوية. في مثل هذه النظرة للعالم لم يكن هناك أي مكان للصين، كما كان ينظر لشعوب أراضي التاريم على أنها تقع على حدود العالم القديم. ولذلك كانت السلطات الرومانية تطلق على سكان التاريم اسم سيريس، أو "شعب الحرير": وكان هؤلاء السيريس بعيداً عن متناول التجار الرومان، وبدأت الشائعات الخيالية في الانتشار حول أمانتهم الكبيرة وقدرتهم على العيش أطول من المعتاد.[١٢٢]

في زمن تأليف كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" ، كان التجار الرومان قد علموا بوجود الصين، لكنهم لم ينجحوا في تقدير حجم نطاقها السياسي. ويقدم لنا مؤلف كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" أول إشارة كلاسيكية للهان، عندما قال:

> بعيدا عن هذه المناطق، وحتى الجزء الشمالي من الأرض، حيث ينتهي البحر، في مكان ما على الطرف الخارجي، هناك دولة داخلية كبيرة جدا تسمى ثينا.[١٢٣]

ولقد اختلط على مؤلف كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" الموقع الدقيق للصين. ولكنه كان متأكداً من أهمية هذا الموقع للتجارة الشرقية. ويسجل لنا هذا العمل كيف كان يتم الاتجار بكميات كبيرة من الحرير من الصين إلى باختريا ثم جنوباً عبر نهر السند ونهر الجانج لتصل إلى شمال الهند. وعرضت هذه الطرق التجارية إمكانيات مثيرة للتجار الرومان المهتمين بالسلع الصينية. ويحذِّر مؤلف كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" :

> ليس من السهل الوصول إلى هذه الثينا، فنادراً ما يحدث أن يعود منها الناس وهؤلاء الناس ليسوا سوى عددٍ قليل. وتقع تحت كوبة الدب الأصغر، ويقال إن لها صلة بالأجزاء الخارجية من بنطس وبحر قزوين.[١٢٤]

في هذه المرحلة المبكرة من المعرفة، استخدم مؤلف كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" المواقع القريبة لتشكيلات النجوم لتحديد موقع الصين. وربما كان التجار الرومان ينظرون بالفعل في إمكانية إجراء اتصالات مباشرة بتوجيه من النجوم.

قبل أن ينتهي بطليموس من تأليف كتابه "الجغرافيا"، كان الرومان على عِلْمٍ بأن أراضي آسيا تمتد داخل شبه جزيرة الملايو حتى خليج تايلاند. وباستخدام السجلات المستمدة من تقارير التجار، حدد بطليموس أرضاً تسمى "صيناي" في هامشٍ ضيقٍ من الأرض على أطراف آسيا. ولا بد أن هذه كانت "ثينا" المذكورة في

كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*". ويبدو أن كلا الاسمين كانا مستمدين من كلمات سنسكريتية للصين.[١٢٥] وتشير معلومات بطليموس إلى أن التجار الرومان الذين اشتركوا في التجارة عبر المحيط أدركوا موقع الصين، لكنهم لم يقدروا مدى اتساعها.

وكانت المعلومات التي وردت لبطليموس من تقرير مايس غامضة وصعبة. ومن هنا لم يستطع أنْ يُكَوِّنَ منها انطباعاً شاملاً عن الأراضى الصينية. وأخذت مجموعة مايس إلى العاصمة في لويانج في الوقت الذي كان فيه الصينيون قد استولوا للتو على ممالك التاريم، وأخضعوا سكانها المتباينين. وأشار الرومان إلى الشعوب التاريم باسم "*السيريس*"، لذلك تم وصف لويانج باسم "سيرا"، عاصمة *السيريس*. لم يدرك بطليموس أن وطن "السيريس" الذي زاره تجار مايس كان في الواقع الصين هي الأراضي نفسها المسماة "صيناي" المذكورة في تقارير التجارة البحرية.

مع استمرار وصول تقارير غامضة ومشوشة من الصين، فمن المرجح أن الحكومة الرومانية لم توجه طموحاتها السياسية نحو هذه الأراضي البعيدة. وليس هناك في المصادر الكلاسيكية ما يشير إلى أن الرومان فهموا الأهمية السياسية للصين. حتى الآن ليس هناك أي حادثة في سجلات الهان قد تشير إلى اهتمام إمبراطور روماني واحد بالشائعات عن الشعوب الغريبة في الشرق الأقصى لتجعله يقوم بإرسال عملاء لإجراء اتصالات مع هذه الأراضي النائية.

بعثة "أنطون" الدبلوماسية

على مدى عشرات السنين، استحوذ على اهتمام العلماء مرجع في تاريخ الهان يشير إلى وجود اتصال سياسي واضح بين حكومتي الصين وروما. ويصف التقرير

كيف وصل المندوبون الرومان في العام ١٦٦م إلى الصين وكيف استقبلهم هوان إمبراطور الهان.[١٢٦]

وكان وصول هؤلاء النواب الرومان له علاقة باضطرابات كبيرة حدثت في منطقة الشرق البعيد. وفي العقد الخامس عشر الميلادي كان ما يسمى بالوباء الأنطوني ينتشر ببطء من خلال طرق التجارة من آسيا الداخلية نحو إمبراطوريات الصين وروما. ومن المؤكد أن المجتمعات الحضرية في آسيا الوسطى قد سقطت ضحية فيما بعد بالعدوى، وكان هذا من شأنه أن يعيق حركة المرور التجارية التي شكلت طرق الحرير. وربما شجع تراجع حركة القوافل إلى إيران بلاش لغزو مملكة ميسان في ١٥١م مما أعطى للبارثيين إمكانية الاستحواذ على التجارة البحرية في السلع الشرقية التي لا تزال تنبض بالحياة.

زودت مملكة الساكا في غرب الهند التجار الرومان الذين زاروا أسواقها الساحلية بالحرير الصيني. ولكن، عندما بدأت تفشل الاتصالات الداخلية التجارية مع آسيا الوسطى ، وجد الساكا أن إمدادات الحرير التي تصل أراضيهم تقلَّصت إلى حدٍ كبير. لذلك أرسل الساكا عملاء لإيجاد طرق جديدة للوصول إلى الصين عن طريق شبكات النقل البحري العاملة. ويسجل *هوى هانشو* أنه ما بين ١٥٩م و١٦١م استقبل البلاط الملكي للهان أول ممثليه من مملكة الساكا.[١٢٧] ربما قدمت هذه الجماعات التماساً للعلاقات التجارية مع الصين، والاعتراف بأنهم اكتشفوا طريق إمداد جديد، ومهم للحرير.

في العام ١٦١م، وصل الوباء الأنطوني إلى حاميات الهان على الحدود الغربية للإمبراطورية، وخلال بضعة أشهر انتشرت هذه العدوى غير المعروفة بشكل مطرد في عددٍ كبيرٍ من سكان الصين. وفي ١٦٢م، شن البارثيون هجومهم الأول على الأراضي الرومانية لما يقرب من قرنين من الزمان. ومن المؤكد أن تكون الحرب التالية التي

اجتاحت بلاد ما بين النهرين قد قادت إلى ربط الاتصالات البرية بطرق التجارة عبر الخليج العربي. لاحقاً وفي العام ١٦٥م، بدأت القوات الرومانية العاملة في بلاد ما بين النهرين في السقوط ضحية لمرض جديد غريب، حتى وصل الوباء في نهاية الأمر إلى العالم الغربي.

ومع إغلاق تجارة بلاد ما بين النهرين من قبل الجيوش المرابطة، اكتسبت طرق البحر الأحمر التجارية أهميةً أكبر في تزويد الأسواق الرومانية بالبضائع. ونتيجة اتصالهم ببلاط الساكا، تحمَّس التجار الرومان لمعرفة المزيد عن الطرق البحرية الجديدة للصين، ورؤية الحرير العائد في هذه البعثات. وفور عودتهم إلى مصر، وعلى ما يبدو، فإنَّ هؤلاء التجار الرومان كوَّنوا وفداً خاصاً بهم لإقامة اتصالات تجارية مع الصين.

أبحر التجار الرومان حول شبه جزيرة الملايو، وعبر مضيق ملقا وصولاً إلى خليج تايلاند، ثم قاموا بالإبحار شمالاً، ووصلوا لأول مرة إلى الساحل الفيتنامي على منطقة تسمى رينان، معتقدين أنهم وصلوا إلى وجهتهم، فقد بادلوا بضاعتهم الرومانية المتبقية مقابل المنتجات الصينية المتوافرة في هذه المنطقة. ولكن رينان كانت منطقة قيادة عسكرية تابعة للهان، وبمجرد أن علمت السلطات الصينية بوجودها، اقتيد الرومان إلى البلاط الإمبراطوري. ومن المؤكد أن التواصل كان صعباً للغاية وأجري على الأرجح من خلال سلسلة من المترجمين. ولم يكن لدى المجموعة أي هدايا رومانية قيمة لتقديمها كهدية دبلوماسية، لذلك عرضوا على الإمبراطور الصيني السلع التجارية التي انتشلوها من جنوب شرق آسيا. وأكدوا أنهم كانوا رومانيين وبقوا كذلك، وأنه قد تم إرسالهم من قبل حاكم يُدعَى "أنطون". ووفقاً *لهوى هانشو*:

> بعث حاكم الإمبراطورية الرومانية "أنطون" المبعوثين من وراء الحدود للوصول إلينا عبر رينان. وقد عرضوا علينا ناب الفيل، وقرون وحيد القرن، وأصداف السلاحف [كهدايا دبلوماسية]. وكانت هذه أول مرة يوجد فيها اتصالات [مباشرة] [بين بلدينا]. (١٢٨)

كان "أنطون" هو الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس أنطونيوس الذي حكم من ١٦١م إلى ١٨٠م. وكان يواجه حفظة السجلات الصينية صعوبة في فهم هذا الاسم الطويل، واختصروا اسمه "أنطونيوس" إلى "أنطون".[١٢٩]

معظم العلماء يعتقدون أنه لم يتم إرسال هؤلاء الممثلين الرومان في مهمة رسمية للإمبراطور. وثمة مَنْ يقول إنهم كانوا مجرد تجار انتهازيين تعثروا في الاتصال مع سلطات الهان. وهذا يفسِّر لماذا لم يكن لديهم هدايا دبلوماسية باهظة الثمن، وقدموا فقط "جزية" تتألف من السلع المحلية لإمبراطور الهان.[١٣٠] ولكن ماركوس أوريليوس كان الإمبراطور والفيلسوف الكبير، وربما قد وافق على هذه المحاولة لإجراء اتصالات، خصوصاً بعدما ما أشارت بعض الشائعات الشعبية إلى فضل هؤلاء الأجانب القاطنين بعيداً.[١٣١] وعلى مايبدو فقد سعت روما لضم حلفاء جدد في صراعها ضد بارثيا. حتى أكثر الأفكار تضارباً هي أن كوشان أبلغوا الرومان عن الصين وتحالفهم مع بان تشاو.

إذا كانت هناك أحكام قد صدرت ضد مجموعة أنطون، فلا بد أنَّ شيئاً ما حدث ليتم تجريدهم من هداياهم الرومانية القيمة قبل أن يصلوا إلى المحكمة الصينية. وعندما تم استدعاء المجموعة أمام إمبراطور الهان، لم يكونوا مثيرين للإعجاب كما توقعهم الهان من التقارير السابقة. وكان الصينيون يعتقدون أن البعثة كانت رسمية وبالتالي وصلوا إلى استنتاج مفاده أن المعلومات السابقة حول ثروة روما الكبيرة قد تكون غير دقيقة. و يعلِّق *هوى هانشو* على هذه الحادثة بقوله :

> كانت الجزية التي أحضروها غير ثمينة وغير نادرة، مما يثير الشك حول تقارير [روما التي قُدِّمَتْ في وقتٍ سابقٍ من قبل المخبرين] التي قد يكون مبالغاً فيها.[١٣٢]

لم تشرْ المصادر الكلاسيكية، التي تصف عهد ماركوس أوريليوس، إلى أي شخصيات رومانية قامت بمساعٍ دبلوماسية مع الصين وعادت إلى روما. فلو كانت

مجموعة أنطون قد عادت بنجاح إلى الأراضي الرومانية، لوجدت الإمبراطورية تعاني من أزمة وهي الوباء الأنطوني الذي اجتاح المناطق الحضرية. ومن المفارقات العجيبة أن طرق المواصلات التي قد تكون قد أفادت الحضارتين الرومانية والصينية من قبل تعتبر الآن قنوات لهذا المرض المدمر. وكانت مجتمعات التجار الرومان غير قادرة على الاستفادة من الفرص التجارية التي تتيحها أي معرفة جديدة بالصين. أما بالنسبة للسلطات الرومانية، التي تم تدمير جيشها من قبل المرض، وزاد تهديد القبائل الجرمانية لها باجتياح المحافظات الشمالية، فلم تعد الاتصالات البعيدة في الشرق الأقصى من أولوياتها.

في هذه الأثناء كانت حكومة الهان تكافح من أجل السيطرة على الآثار المترتبة على الوباء، الذي دمَّر قواتها العسكرية، وانتشر في المناطق السكنية الحضرية الواسعة من إمبراطوريتهم انتشار النار في الهشيم . لكنهم كانوا غير مدركين أن الأزمة نفسها كانت تسحق روما. ومن هنا كان الهان في حيرة بسبب إخفاق أنطون في إرسال مزيدٍ من الدبلوماسيين. وبالنسبة لأولئك العاملين في الحكومة، فقد أكدوا هذه النظرية التي تقول إن روما لم تكن قوية كما كان يعتقد الجيل السابق من مسؤولي الهان. وبغض النظر عن كيفية تفسير هذه الأحداث، لا تزال بعثة أنطون إلى الصين تعتبر واحدةً من أكثر الأحداث المثيرة للاهتمام في تاريخ الحضارات القديمة.

التدهور

مع اجتياح الوباء الأنطوني العالم القديم، كان لا بد أن تتأثر، بقوةٍ، علاقات روما السياسية مع الشرق البعيد. ولقد أشار الأكاديميون إلى السمة البشرية المعتادة في اتهام المجتمعات الأجنبية بأنها مصدر منشأ الأمراض الضارية الجديدة.[١٣٣] ولذلك فمن المثير للاهتمام أن تذكر مصادر التاميل الهجمات الممنهجة عملياً على الشحن الروماني

في هذه الحقبة، واستيلاء ملك الكيرا على البضائع واتخاذ الرعايا الرومان رهائن.[١٣٤] ووفقاً لباتيروباتو Patiruppattu :•

> قيّد نيتونسيرالاتان *اليافانا* بالسلاسل وسكب الزيت على رؤوسهم. وأبقى أيديهم مقيدةً وراء ظهورهم واستولى على مجوهراتهم الثمينة وعلى ألماسهم الممتاز.[١٣٥]

تغيَّرت تطلعات الإمبراطورية الرومانية جراء تضرر الجيش الروماني من المرض، حيث بدأ يتخذ موقفاً دفاعياً في الحروب الجرمانية الجديدة. وأصبحت الطموحات العسكرية السابقة بشأن الشرق البعيد غير واقعية على نحو متزايد. وبذلك أصبحت الفتوحات، التي كان يمكن أن تتحقق الآن، مدعاةً للسخرية. وفي هذا العصر، كان لوسيان يسخر من القصص المكتوبة حول الفتوحات الشرقية، ويذكر على وجه الخصوص قصةً صوَّر فيها الكاتب أنه يمكن هزيمة "بلاش"، وجعل النبلاء الفرثيين يقاتلون في الساحات ؛ لتسلية الرومان المنتصرين. يقول لوسيان :

> لقد عرفت أحد الكُتَّاب، الذي كان يجمع معلوماته ليكتب عملاً في المستقبل. ويشمل هذا العمل الاستيلاء على "بلاش"، وإعدام أوسرويس، و(إلقاءه للأسود). وأبعد من كل هذا، انتصاراتنا الطويلة المؤجلة. في هذا التقرير التنبؤي يمر الكاتب بسرعة باتجاه نهاية عمله.[١٣٦]

كان لوسيان لاذعاً أكثر في نقده للغزو الروماني المتخيل للهند ليتم تجاوز الإسكندر الأكبر، حيث يكتب في هذا الخصوص :

> تعهد هذا الكاتب أيضاً أنه سوف يكتب سرداً للأحداث المقبلة في الهند بما في ذلك الطواف حول المحيط الخارجي، وأنه على وشك الانتهاء! وأن مقدمة كتابه *"الهند"* قد تمت بالفعل: عبر الفيلق الروماني الثالث، ووحدة السيلت، وفرقة مغاربية صغيرة في نهر السند بكامل قوتها بقيادة كاسيوس. وسوف يوافينا مراسلنا قريباً عن

• أحد الأعمال الشعرية التاميلية (المترجم).

أنشطتهم، بما في ذلك طريقتهم في التعامل مع الفيلة. وسوف تظهر هذه التفاصيل في رسائل تحمل عبارة "موزيريس من براهمة الهندوس".[١٣٧]

ربما يفسِّر وجود هذه الروايات عدم حصول تقرير مايس تيتيانوس حول الصين على اعتراف واسع النطاق.[١٣٨] حيث رفضه الرومان المتعلمون باعتباره قصةً خياليةً أخرى. طلب مايس من قرائه الاعتقاد بأن هناك مملكة غريبة شاسعة في الشرق الأقصى تنافس الإمبراطورية الرومانية. وكانت الجماعة التي أرسلها مايس هي الوحيدة التي سافرت إلى هذا "العالم الآخر" البعيد والغريب.ولم يتبع هذه الجماعة أي جماعة في العهود التالية، حيث كانت الإمبراطورية الرومانية تكافح للحفاظ على حدودها الشمالية. ولقد وقعت الأراضي التي تقع بين روما والصين في فوضى الحرب.

اتصالات لاحقة

خلال القرن الثالث الميلادي، ذكرت التقارير الصينية ثلاث حالات اتصال غير عادية بين الرعايا الرومان والحكام الصينيين. وتشير الأدلة إلى أنه على الرغم من تراجع التجارة الشرقية بشكلٍ كبيرٍ بعد الوباء الأنطوني، ظلت طرق التجارة في الشرق البعيد معروفة لبعض التجار الرومان. في هذا العصر لم يجرؤ سوى عدد قليل من الأفراد على المغامرة بعيداً في المحيط الهندي، وما وراءه من بحار. ووقعت هذه الأحداث بعد انهيار إمبراطورية الهان عندما انقسمت المملكة الصينية، التي كانت كبيرة في وقتٍ ما إلى ممالك متناحرة، كل منها يتنافس على الزعامة، وعندما كانت الحروب الأهلية مستعرةً في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية.

في ٢٢٤م هزم الملك الساساني الفارسي أردشير آخر حاكم للفرثيين في صراع ملحمي تم خوضه في جميع أنحاء إيران القديمة. ومن المؤكد أن هذه الحرب الفارسية قد شلت طرق الحرير الإيراني فقد أدت إلى نقص وارتفاع الأسعار في الأسواق الرومانية.

واستجابةً لهذه الأزمة قرر تاجر روماني يُدعَى ليون البحث عن طريق بحري إلى الصين للوصول إلى أسواق الحرير في مصدرها البعيد.

ويسجل *ليانج شو*، أنه في ٢٢٦م، وصل تاجر روماني اسمه "دا تشين لون" في شرق الصين في إقليم وو.[١٣٩] وربما كان الاسم اليوناني"لون" هو النطق المبسط من "ليون" عند الصينيين القدماء. وقد أُخذ ليون هذا إلى بلاط إمبراطور وو سون تشوان، وطُلب منه إعطاء تعليقٍ عن مكانه الأصلي. يقول *ليانج شو*:

> جاء تاجر من *دا تشين* اسمه لون إلى طونكن. وأرسله محافظ طونكن ويدعى وو مياو إلى سون تشيوان. وسأله الإمبراطور عن وطنه وعاداته بالتفصيل. ولقد أعد تشين لون تقريراً رداً على ذلك.[١٤٠]

أعرب ليون عن اهتمامه ببعض الأسرى ذوي البشرة الداكنة الذين تم عرضهم على محكمة وو، نتيجة للصراع الأخير. أعطى الإمبراطور سون تشوان ليون هدية، وهي٢٠ من هؤلاء الأسرى، منهم ١٠ رجال و ١٠ نساء. وأعجبت حكومة الوو بهؤلاء الأجانب، واغتنم سون تشوان الفرصة لمعرفة المزيد عن روما وحضارتها المتطورة. واختار ضابطاً صينياً يُدعَى ليو هسين؛ ليرافق ليون في رحلة عودته إلى الإمبراطورية الرومانية. يقول *ليانج شو*:

> شاهد تشين لون بعض الأسرى ذوي البشرة الداكنة، وقال إنه في *دا تشين* نادراً ما يشاهد هؤلاء الرجال. لذلك أعطاه سون تشوان ١٠ أسرى من الذكور والإناث، وأرسل معهم ضابطاً يُدعَى ليو هسين، من حي هيوجي؛ لمرافقة تشين لون [في عودته]. عاد دا تشين لون مباشرةً إلى وطنه، لكن ليو هسين لقي حتفه في الطريق.[١٤١]

يعتبر هذا المرجع مثيراً للاهتمام؛ لأن المصادر الصينية لم تصف رحلة عودة ليون وليو هسين، ولا تحتوي مصادرنا الكلاسيكية على أيٍّ معلومات عن أي تجار

حرير وصولوا إلى الإمبراطورية الرومانية مع الأسرى القادمين من الشرق الأقصى، ولذلك يبدو من المحتمل أن ليون لم يعدْ بسلامٍ إلى الإمبراطورية.

ومن المؤكد أن الإمبراطور سون تشوان انتظر عودة ليون، ووصول البعثات الدبلوماسية الرومانية، ومجيء مزيدٍ من السفن التجارية الأجنبية. ولكن ليو هسين لم يعدْ، وافترضت القصص بأن الرحلة البحرية الطويلة إلى *دا تشين*، قد جلبت المرض، وأنَّ الحنين إلى الوطن وصل الآن مرحلة لا تُطاق. أما بالنسبة لليون، فإنَّ اختفاءَه غير المبرر في الشرق الأقصى ربما أثنى التجار الرومان الآخرين عن القيام بالرحلة. وقد يكون أحد التفسيرات المحتملة لهذه الأحداث هو أنه عند العودة عبر مضايق ملقا الغادرة، التي يشوبها شلل من هدوئها ، تركت السفينة الرومانية تحت رحمة القراصنة الساحليين. وربما المضايق هي سبب لحصد حياة ليون وطاقمه، وأنهت الإمكانيات التي تتيحها هذه الاتصالات غير العادية.

خلال الستينيات من القرن الثالث الميلادي كان هناك انتعاشٌ كبيرٌ في التجارة الشرقية مع روما. وخلال هذه الفترة كانت هناك تحسينات أدخلت على ميناء مايوس هُرموس على البحر الأحمر، التي شملت بناء قاعدة عسكرية جديدة محصنة في الموقع.[١٤٢] ويشير نص صيني من هذه الحقبة، إلى ظهور التجار الرومان في المناطق الخارجية من جنوب شرق آسيا.[١٤٣] يقول *ليانج شو*:

> في كثيرٍ من الأحيان كان التجار من روما يقومون بزيارة فونان (كمبوديا)، وجيهنان وتشياوتشيه (فيتنام)، لكن عدداً قليلاً من هذه المناطق قد ذهب الآن إلى روما.[١٤٤]

وقد تم العثور على عملة نحاسية للإمبراطور الغربي الروماني فيكتورينوس في يو ثونج في غربي تايلند، مما يدل على وجود اتصالٍ في وقتٍ ما بعد عام ٢٦٨م.[١٤٥]

زاد هذا الانتعاش التجاري من ثروات تجار مدينتي الإسكندرية وتدمر. وفي هذا العصر كانت بريطانيا وبلاد الغال قد تخلتا عن روما، وانقسمت الإمبراطورية الغربية

سياسياً. وكانت تدمر قد نمت كقوةٍ عسكريةٍ كبيرةٍ على الحدود الشرقية، حيث تركت روما التدمريين يواجهون التهديد الذي تشكله الإمبراطورية الفارسية التي استعادت قوتها. وبعد زيادة الهيمنة العسكرية والاقتصادية لتدمر في المنطقة، بدأت النخبة الحاكمة تطلب تبعية روما. وانتهزت ملكتهم زنوبيا الفرصة لفرض السلطة على الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

في مصر، واصل التجار السكندريون التنازل عن نسبةٍ كبيرةٍ من أرباح تجارتهم الشرقية كضرائب للمسؤولين الرومان. وكانت تذهب هذه الضرائب إلى الخارج إلى إمبراطور لا يهتم كثيراً بمحافظتهم إلا كمقدم للثروة والحبوب لروما. رداً على هذا الوضع، سعى تاجر سكندري غني ومؤثر اسمه فيرموس إلى التحالف مع زنوبيا لتحرير مصر من السيطرة الرومانية.

كان فيرموس أصلاً من سلوقية، لكنه جمع ثروته في مصر نتيجة إقامة الرحلات التجارية للهند.(١٤٦) وكان على اتصال جيد مع التدمريين، وأسس تعاملات مهمة في الخارج مع عِلية القوم في الممالك العربية والأثيوبية. وقد أعطته المستويات العالية التي تعرف عليها في الهند العاج كتذكارٍ للانتصار. ويخبرنا مؤلف كتاب "التاريخ الأوغسطي *Historia Augusta*" • أن "فيرموس أبقى على علاقات جيدة مع البليمياي والعرب، وأنه كثيراً ما أرسل السفن التجارية للهنود".(١٤٧) وربما اعتمد فيرموس أيضاً على جيش خاص من الحراس المرتزقة تعرف عليهم خلال أعماله التجارية.

في ٢٦٩م، قدم فيرموس دعمه للملكة زنوبيا التي أرسلت قوات ناحية الغرب لانتزاع مصر من روما. خططت زنوبيا وفيرموس معاً لاستقلال مصر وتدمر

• عمل يضم مجموعة من السير للعديد من الأباطرة الرومان من هادريان (١١٧- ١٣٨م) إلى كارينوس (٢٨٣ - ٢٨٥م). وقد تم إهداؤه إلى الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول (٣٠٦ - ٣٣٧م) (المترجم).

وتوحيدهما في إمبراطورية حرة جديدة لا تخضع للضرائب والجمارك الرومانية الشرقية.[١٤٨] وكانت روما تحتاج إلى مصر لإطعام سكانها الكثيرين، وبالتالي سارعت المصادر الرومانية إلى تشويه صورة فيرموس. ووصفوه بأنه شخصية وحشية ومخيفة. جاء في كتاب "*Historia August*":

> كان فيرموس كبير الحجم، وكانت عيناه بارزتين جداً، وشعره مُجعَّداً، وجبينه مُشوَّهاً، ووجهه داكناً إلى حد ما. وكان باقي جسده أبيضَ وخشناً، ويغطيه الشعر. وكان الكثيرون ينادونه بالعملاق.[١٤٩]

كما رويت أيضاً العديد من القصص عن ثروته الضخمة، ومنزله الذي يشبه القصر، المزوَّد بلوحات من الزجاج. ويبدو أنه قد جمع مجموعةً هائلةً من الأوراق، ربما كانت عقوداً، أو تقارير تجارية، أو ربما كان فيرموس يمتلك مكتبة خاصة. وانتشرت قصص مثيرة للقلق حول الإقبال الكبير الذي عرضه فيرموس في الأعياد التي نظمها لعِلية القوم.

في عام ٢٧٣م هزم الإمبراطور الروماني أورليان زنوبيا واستولى على مدينة تدمر. ووقف فيرموس الآن وحيداً، واضطرت زنوبيا لاستخدام ثروته الخاصة لتمويل حملته من أجل استقلال الإسكندرية. وتحرك أورليان بسرعة ضد مصر.[١٥٠] يذكر كتاب "*Historia Augusta*":

> كان فيرموس صديقاً وحليفاً لزنوبيا. وبتحريض من جنون المصريين استولى على الإسكندرية وسحقه الإمبراطور أورليان بكثيرٍ من حسن الحظ والبسالة.[١٥١]

شنق المنتصرون الرومان فيرموس، كما لو كان مجرماً عادياً.[١٥٢] وتمت إعادة العديد من أنصاره إلى روما كسجناء مع بعض قادة تدمر الذين سيطروا على المناصب الرفيعة تحت حكم زنوبيا. وتم عرض الأسرى في روما في احتفالٍ بنصر أورليان على المحافظات الشرقية وحلفائهم البعيدين. وكان من بين السجناء الذين تم إذلالهم في هذه

المسيرة خلال الغوغاء الرومان أكسومين من مملكة إثيوبيا في أفريقيا، وعرب من الأمم العربية الجنوبية، وكوشان من باختريا، وناس من الهند. وربما كان العديد من هؤلاء الأفراد البائسين أفراد اتصالات تجارية تم القبض عليهم من قبل القوات الرومانية عندما استولوا على مدينة تدمر، ودخلوا الإسكندرية لإيجاد فيرموس وقتله.[١٥٣]

في عام ٢٨٢م، خطَّط الإمبراطور الروماني الجديد كاروس لغزو بلاد فارس ومهاجمة الحكام الساسانيين.[١٥٤] ومن المؤكد أن التحضيرات لهذه الحملة، قد أوقفت حركة المرور الشرقية من بلاد ما بين النهرين إلى الأراضي الرومانية. وهذا أعطى التجار السكندريين حافزاً للبحث عن الطريق البحري، الذي سلكه ليون متجهاً إلى الصين قبل خمسة عقود.

تعلَّم رجال الأعمال السكندريون المشاركون في هذه المهمة الجديدة المتجهة إلى الصين من مثال فيرموس، وتصرفوا حسب مصالحهم الخاصة. وهنا تم تقويض منصب الإمبراطور من خلال التعاقب السريع للمرشحين الإمبراطوريين، الذين اغتيلوا، أو خلعوا في جولات متكررة من الحرب الأهلية. وعلاوة على ذلك، عرف العديد من رجال الأعمال السكندريين المشاركين في هذه المبادرة الجديدة للاتصال بالصين فيرموس، وكانت لهم تعاملات تجارية مع زملائه التدمريين. ولم يروا أي إلزام للإعلان عن خططهم لدى السلطات الرومانية التي أساءت معاملة شركائهم.

وصلت أول سفينة رومانية مشاركة في هذه الاستكشافات الجديدة إلى الصين في عام ٢٨٢م محمَّلةً بحمولة متوسطية ثمينة وسليمة، فتعجب الصينيون من قماش الأسبستوس، الذي يمكن تنظيفه من البقع بالحريق. وسجَّل الصينيون ما يلي:

> في هذا العام، جاءت (بعثة دبلوماسية من) *دا تشين* لتقديم تقديرها ومرت عبر دوران جوانجشي. وكان من بين الكنوز العديدة التي عرضت القماش الغريب "الذي يغسل بالنار" (الأسبستوس).[١٥٥]

بشكلٍ ملحوظ، لم يحتوِ التقرير على أيِّ إشارة مباشرة للتجار، أو أي إشارة إلى الإمبراطور الروماني، الذي أمر بإرسال المجموعة. وهذا يشير إلى أن المبادرة كانت في مهمة خاصة من قبل فريق تجاري كان يحاول عمل ترتيبات تجارية مع السلطات الصينية.

تمكَّن الفريق السكندري، الذي وصل إلى الصين في ٢٨٢م، من العودة إلى مصر، وإبلاغ التجار الآخرين عن اكتشافاتهم. ويسجل عمل صيني آخر يدعى *نان فانج تساو مو شوانج*، أنه كان هناك اتصال آخر في عام ٢٨٤م مع الرعايا الرومان.(١٥٦) وفي هذه المناسبة، قدَّم التجار السكندريون للإمبراطور الصيني ٣٠٠٠٠ لفافة من العود الهندي المعطر ويُدعَى "ورقة عطر العسل". وكانت هذه السلع من جنوب شرق آسيا، لكنها كانت ذات قيمة في المجتمع الصيني والروماني على حد سواء. وقد أعجب الإمبراطور بالهدية الرومانية وأمر موظفاً كبيراً بكتابة الكلاسيكيات الصينية على هذه اللفائف الخشبية الرقيقة. ويسجل موجز جهة الاتصال هذه ما يلي:

> في هذا العام قدم *دا تشين* ٣٠٠٠٠ لفافة من ورق عطر العسل. ومنح الإمبراطور القائد الجنوبي ١٠٠٠٠ لفافة... وأعطى أوامره بكتابة تعليقاته والكلاسيكيات (الصينية).(١٥٧)

خلال هذه الاتصالات الأولية كان التجار السكندريون غير متأكدين من السلع التي تكون بمثابة الهدايا الأكثر إثارةً للإعجاب لدى السلطات الصينية، أو الأكثر قيمةً في أسواق الشرق الأقصى. ومن المؤكد أن المجموعة الرومانية حسبت أنه يمكنها كسب المزيد من الأرباح من تبادل العود الهندي مقابل الحرير، أكثر مما يمكن أن يكسبوه عن طريق الحفاظ على المنتج لبيعه في الإسكندرية.

قد تكون هذه الاتصالات ناجحة، لكنها جاءت متأخرة جداً لدرجة عدم تغيير ثروات الصين وروما. ولم يكن لدى رجال الأعمال السكندريين أي دعم حكومي،

وكان الحافز هو أرباح السوق بدلاً من تبادل المعارف، أو التكنولوجيات، أو الأفكار السياسية. وكانت الإمبراطورية الرومانية تتطور بالفعل على طول الخطوط الاقتصادية، التي من شأنها كبح هذا الانتقام السريع في التجارة الشرقية. ونظراً لما تواجهه الحكومة الرومانية من أزمات مستمرة، وانخفاض في الإيرادات، تم خفض قيمة العملة الإمبراطورية إلى حدٍ بدأت فيه أسعار السوق تتصاعد بسرعة. وانخفضت الآن العملة الرومانية المعدنية التي كان يعجب بها جداً حكام الشرق إلى المعدن الأساس الذي له قيمة رمزية فقط داخل الإمبراطورية. أخيراً في عام ٣٠١م. وفي محاولة يائسة للسيطرة على التضخم، فرض الإمبراطور دقلديانوس مرسوماً على السكان الرومان، وحددوا الحد الأقصى لأسعار السلع في السوق. ومثل أسلافهم البطالمة حدَّد الرومان الأسعار التي تُدفع للبضائع الشرقية وحدَّدوا أرباح السوق الحرة التي مُوِّلَتْ في وقتٍ سابقٍ من الرحلات التجارية للهند.[١٥٨] أنهت سياسة التطفل وسوء الإدارة الاقتصادية فرص الربح في الشرق البعيد، وانتهت معها إمكانيات الاتصال بين روما والصين.

وفي النهاية، وكنتيجةٍ لكل ذلك، فلقد فشلت الإمبراطوريتان الكبيرتان في العالم القديم في الوصول إلى بعضهما البعض. لم تقدم اتصالاتهم الوجيزة وغير الملموسة أبداً أي تبادل للأفكار، أو التقنيات التي يمكن أن تعمل على تحويل ثروات حضارات كل منهما. وعلى الرغم من هذه الفرص الضائعة، فإنه لا يزال من الممكن قراءة هذه المساعي البعيدة كحلقاتٍ رائعةٍ في تاريخ الإنسانية. ومثل معظم تواريخ العالم، فإنَّ الأفكار الأكثر إثارةً لاهتمام أي عالم تنشأ من التكهن بشأن "ما الذي عساه قد حدث".